

نزعة اقليمية

خليفة
الوقيان

بعضهم في الايهام بانه لبناني الجذور والفروع ، فان في الكويت محاولات لانتهاج مثل ذلك السبيل ، وسعيا حثيثا الى التشديد على كل ما هو كويتي مع السعي الى تضخيمه . ولعلنا نجد في طفيان اصطناع اللهجة المحلية لدى وسائل النشر مثلا قريبا . وقد لا يكون من المستغرب ان نسمع بعد حين عن اللغة الكويتية والحضارة الكويتية والقومية الكويتية والانسان الكويتي .

ونحن وان كنا نشعر بالمتعة تارة وبالحزن تارة اخرى حين نتأمل التجربة اللبنانية على كل صعيد ، فاننا مدعوون للتنبية الى ان الشعب العربي في الكويت لم يالف منذ القدم تلك الاتجاهات المناهضة للانفتاح والواقعية والتواضع ، والتي تدعو الى الانغلاق والتقوقع والفروغ الزائف ، والانسلاخ عن الجسم الاكبر وقطع الصلة بالجذور .

واذا كانت هناك فلة ضئيلة الاثر - في هذه المرحلة - تحاول ان تغلب الحقائق ، سميا وراء كسب عاجل ، او ارضاء لفرغات شاذة ، فان مشاعر المجموع وانتاءاته ومعتقداته الاصيلية ينبغي ان لا تتعرض للتشويه والتدمير .

خليفة الوقيان

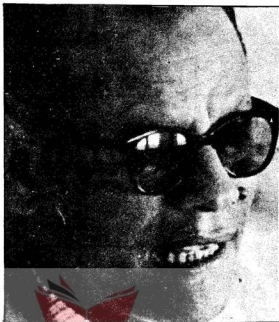
لبنان كيان طريف بكل ما فيه من تناقضات تدعو الى الضحك حيناً ، والسى البكاء في احيان اخرى . ولهذا علينا ان لا نعجب حينما نسمع عن الامة اللبنانية والقومية اللبنانية ، والانسان اللبناني ، بل ينبغي ان نتوهم بان في لبنان ، انسانا آخر ، له من السمات والخصائص ما يجعله يختلف عن الانسان في شتى اصقاع الارض . وينفق بعض اللبنانيين - يحكم هذا المنطق - جهودا كبيرة في ملاقة وترسيخ كل ما يؤكد تلك النظرة .

ويشعر بعض الكويتيين - لسبب او لآخر - بان باستطاعتهم ان يقيموا على ضفاف الخليج كيانا كالكيان اللبناني بكل محاسنه ومثاليه . لذا نجدهم لا يتحرجون في اقتباس كثير من المثالب اللبنانية ، كالاتينية والطائفية والعشائرية ، بل لملهم يرونها امثلة ينبغي ان تحذروا .

وعلى الرغم من اخفاق محاولاتهم بسبب من اختلاف الظروف الموضوعية ، الا انهم ما برحوا يعمدون الكرة ، فلعلهم يفلحون ولو بعد حين في تفنيت انفسهم الى مجموعة معقولة من الطوائف والعشائر والتجمعات الاقليمية .

وكما ان في لبنان تراثا حضاريا وثقافيا يجهد

الرمز في أعمال



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

نجيب محفوظ

في تفسيرات من كتب أو تحدث عن قصص هذه المرحلة ، فإذا كانت التفسيرات التي عرضت لأعمال محفوظ السابقة تمثل تصورات معينة تقوم على أرضية واضحة المعالم ، وإن اختلفت زاوية الرؤية ، فإن التفسيرات الخاصة بهذه المرحلة تقف على أساس غير مستقر . وليس هذا إلا لأن النص الجديد لم يعد يوحى بها يحمل بسهولة ويسر ، ومن ثم تلعب تصورات الباحثين والأرضية الفكرية التي يقفون عليها أو الزاوية التي ينظرون منها دورا بارزا في هذا الاختلاف . ولا يمثل هذا منهجا غريبا في الأدب ، فقد تعرضت أعمال « كافكا » ، مثلا ، لمل هذا ، حتى أن أحد النقاد قال : « قرأت حوالي عشرين أو خمسة وعشرين تفسيراً

كان للهزة العاطفية والفكرية التي تركتها النكسة في النفوس أثر بارز على نجيب محفوظ ، فقد استجاب الشكل الفني لهذا الوضع غير المستقر المظنيء حيرة وسخطا وشكا ، غمالت المعالجة الفنية إلى الإغراق في الرمز حتى كادت أن تكون هذه القصص الغازا لولا بعض الإشارات الانية من ادراكنا للظرف السياسي والاجتماعي والنفسى بجانب معرفة الخطوط العامة للتطور الفني والفكري عند المؤلف ، فاعمال الكاتب تمثل في مجموعها اشارات ضوئية كل منها يكشف الزاوية المقابلة .

وفي هذه المرحلة الجديدة نلمس ذلك التباين الواضح

معتولا لرواية (المحاكمة) و (الظلمة) لا يتفق تفسير مع آخر » .

وهذا المعنى الذي عرضه هذا الناقد يتكرر عند نجيب محفوظ نفسه حين أكد أنه يكتب « الرواية أو القصة فيفسرها الناقد للتفسير الذي يريد .. ويفسرهما القارئ التفسير الذي يريد .. ولكل منهما حقه في التفسير .. وربما كان تفسير الناقد أو القارئ يختلف تماما عن تفسيري أنا الخاص ورويتي الذاتية للعمل بمثل ما حدث أخيرا معي بعد أن نشرت آخر حوارياتي « حارة العشاق » .. لقد التقيت بعدد من الاصدقاء والكتاب فقال كل منهم شيئا مختلفا عن الآخر في هذه الحوارية .. وأقول أن كل ما قاله يختلف تماما عما كان يقول في راسي وأنا أكتبها .. ولكنني أقول أيضا أن من حق كل منهم أن يرى ما يريد » . (1)

وهذا لا يعني أن هذه التفسيرات تخرج عن منطق النص ، ومسار المؤلف الفكري ، فإذا كان محفوظ قد أكد أكثر من مرة بأنه كان في السابق يتم التأليف عنده على أساس دراسة وتأمل وتخطيط قبل الشروع في الكتابة ، فمما عدا أعماله الأخيرة فهي الوحيدة التي دخلها باتعمال دون موضوع (2) ، فإن هذا لا يعني خروجاً على الخط العام للمؤلف بل أنه ادعى إلى كشف أعماقه حين يتحرك أفعاله المستجيب لفكره الصافي . ومن هذا المنطلق نجد أن النظرة لأعماله الأخيرة يجب أن تعتمد على الإدراك العام لمسار محفوظ الفكري ، مع وضعها في إطارها التاريخي ..

وتحسني دراستنا للمجاميع الثلاث لن نقوم بعملية استقصاء لكل تمصص هذه المرحلة ، ولكن سنعرض لبعض الخطوط الرئيسية في هذه المرحلة دون الالتزام بدراسة كل مجموعة على حدة ، فقد نجح بين قصتين من مجموعتين إذا اقتضت الضرورة هذا .

ولاول مرة في تاريخ نجيب محفوظ الروائي يضع إشارة تصدد تاريخ الكتابة عنده ، فقد نص في مجموعة « تحت المظلة » على أن هذه القصص كتبت في الفترة بين أكتوبر وديسمبر سنة 1977 . وهو بهذا يقسمها في إطارها التاريخي وظروفها النفسية ، بل أنه قد يشير بطرف خفي إلى معناها السياسي والاجتماعي ، ولا يعني

هذا بالضرورة أنها ذات طابع سياسي بالمعنى المحدد ، ولكنها في حقيقتها مراجعات لمواقف سابقة سياسية وفكرية فرضتها طبيعة المرحلة . وقد حوت هذه المجموعة محاولات غنية تدرت بها ، ففيها قصص قصيرة اهتز فيها نظام الشكل واستمر في المجموعتين اللاحقتين . وهناك محاولة تسجيل لرحلة واقعية قام بها المؤلف إلى اليمن ، ورمد فيها رحلة الأديب والجندي إلى هذه الأرض ، الأول لينفعل بالأحداث والآخر ليشترك فيها .. ومن خلال التنقل بين الاثنين يسجل موقفه من السبلات التي شاهدها . فهذه القصة تشدنا إلى جوارها الواقعية التي تقترب من التسجيل المباشر في نفس الوقت الذي نحس فيه بالفارقات والانفعالات . وبين هذه وتلك تدور حوادث هذه الثلاثة أيام .

ويمثل القسم الأخير محاولات مسرحية ، أو حواريات من فصل واحد اقتربت في أسلوبها الفني من الاتجاه الذي حلت به مجموعة القصص الخمس الأولى ، ولعل المؤلف رأى في أسلوب الحوار وسيلة للاتصال بالآخرين لتصل صدمة الكتابة .



بقلم: سليمان المشطي

يهمنا في وقتنا أمام مجموعة « تحت المظلة » وما تبعها إلى أن نشير إلى هذه الخاصية الجديدة التي سيطرت على الشكل عند المؤلف ، فقد دخل محفوظ في سلك الرمزيين المغرقتين في الرمز . فالقارئ في المجموعة الأولى لا يستطيع الوصول إلى معنى معين ، ولكنه في أعماله اللاحقة انضحت ملامح الأسلوب ، وإن ظل المعنى مبهما وغير واضح بالنسبة للقارئ . على أنه كان يقدم لنا حكاية مقبولة ، مترابطة في جزئياتها ، متباعدة من حيث الترتيب المنطقي ، تماما كصمرنا المتناسك . ولكن المحصلة النهائية تظل شيئا غير مدرك . والأسلوب يكاد يكون تسجيلا للحدث

الجاري ، فلا نصطدم مثلا بوسط كذاك الذي رسمه « جويس » حيث افتقاد الرابطة القريبية بين جملة وأخرى ، ولكتنا نلتقي بمعلم « كافكا » المنظم والغريب في آن واحد ، يفري بالسهولة حين القراءة . ولكن الأحداث ونتيجتها العامة تترك القارئ متخبطا محاطا بجموعة من أسئلة الحيرة .

فسي قصة « تحت المظلة » ، نفسها ، نجد عالما لا ينتهي الى المنطق القريب ، فتحت المظلة جمع من الناس ، بينها في الخارج كان المطر ينهمر ، وتجري حوادث غريبة يقتلهم السؤال عنها ، هناك لص مطارد يهرب ثم يعود لينتشى بحرارة ، واثنا هذا تأتي سيارتان تتطاردان فتصطدبان وتتشمعل النار فيها ، ويسقط ضحية دون أن يتحرك ساكن ، وينزق اللص ملابسه ويرقص عاريا ، رجل وامرأة يمارسان الحب على جثة القتيل . هناك بدو ، خواجات ، سياح ، عمال بناء يبنون قبرا للعاشقين وسريرا للجثث . رجل في ثوب القشاة لا يعرف من أين جاء يقرأ صحيفة دون أن يميز كلامه ، ولكن كلياته نفذت كالأمواج الصاخبة . وتنتشب معارك في محيط البسود والخواجات « واشتد كل شيء » وبلغ غايته القتل والرقص والحب والموت والمطر .. ويقتل رجل يندس بسن الناس ، فيغير الإهتمام بصلفه . ويأخذ في توجيه الملاحظات منها بالعاشقين دون الرأس المتفجر دما . ولكنه سرعان ما يذوب صلفه ويفسر هاربا فيندفع الكل وراءه ، عدا من تحت المظلة .

ان الحوادث الجارية تحرك السؤال فيهم ، فتجاسروا وسالوا الشرطي الواثق الذي لم يحرك ساكنا . فكان جوابه سؤال عن تجمعهم ويطاقتهم . ويسدد بنديته اليهم ليتساقطوا واحدا اثر الآخر . الأجساد تحت المظلة ، أما الرؤوس فتوسدت الطوار تحت المطر !

ما الذي يقدمه هذا العالم المرتبك ؟ . وهذه المظلة هل هي هاجس الخوف عند مجموع الناس ، فهي مظلة الايمان ، يخافون من المطر لأن فيه تغييرا لكل ما في داخلهم ، هذا التغيير الذي قد يكون الثورة والرماس . وهذا اللص هل هو حركة التبرد التي راحت تسود العالم ، فبدأ هاربا ثم مناقشا ومحاورا ، ليصل بعد ذلك حين حدث الاصطدام الهيب امامه الى ان يكون راقصا ، تماما كحركة التبرد التي اجتاحت العالم فوجدت في الرقص والعري وسيلة للاحتجاج .

ولم يكن اللذان يمارسان الجنس الا أبناء هذا الصدام او الصدمة المعاصرة التي ورثت الدم ، فكان الجنس هربا ، لعله خوف الملل الذي انتاب الكل ، وقد احتضن القبر العاشقين فهي محاولة لخلق الحب ، بينما يقام سرير للقتلى .. فبقي الموت على السطح بارزا . اما رأي العمال فلا يكاد يسمع . ولم يكن لايس رب القضاء الا ذلك الحكم الخلقى على كل ما يدور وان لم تسمع كلمته فقد بقيت في الطريق منتشرة . ويبقى الإهتمام يحيط بذلك الرجل الغامض الذي برز عندها بلغ كشيء نهائيه . فبدأ أمرا وانتهى مطاردا من قبل نفر من الرجال ذوي هيئة رسمية ومن وراءهم من في الساحة عدا من تحت المظلة ..

قد يكون من تحت المظلة هو نحن ، بينما كان الخارج يهوج بكل حركة . ولم يكن الجو تحت المطر الا هذا العالم المتغير من حولنا ، اما نحن فتحت مظلة الخوف والخشية ننف ، لذلك استقل كل سيارته الا من كان تحت المظلة . وعند اول حركة ايجابية في السؤال .. سقطنا صرعى باليد القاطنة . ولم يكن السؤال الا عظمة الفكر فسي انساننا الذي عاش تحت تلك المظلة ، لذلك تأتي تلك الإشارة الذكية حين جعل الرؤوس تتوسد الطوار تحت المطر . فهي تحوي نظرة غريبة لحياتنا .. لذلك كانت الهزيمة .. فيها الانفصال عن كل حركة ، وحوت الكبت والتمسكة .. لذلك فنحن مجموع غير مسمى .

وليس قصة « النوم » الا احدي تلك اللحظات التي تسببت في الهزيمة ، فالنوم هنا نوع من الغفلة سببها صحو الليل ، فمدرس العربي يلتقي ومدرس التاريخ للحديث عن المفعول المطلق والبحث في الارواح والانشغال بأحداث المصير ، فاذا تقفست عصور الظلام يخرج مع نور الصباح وقد غلبه الارق بعد نقاش عقيم ، فتحول الهدوء والحقيقة والانتصار عند بوذا الى هدوء وحقيقة وهزيمة عنده .

وحين الخروج رأى « الديزل » ركب الحضارة ، ولكن الصرخة قد ملأت الدنيا ، وقتلت حبيبته « المولدة » التي كانت تعد بكل خير ، قتلت في لحظة نومه .. بعد تلك المناقشات ، فارتطبت الصرخة بجدار نومه .. ويعود بعد ذلك الى منزله وقد ازدادت حاجته الى نوم طويل بلا نهاية ، الى موت في الحقيقة .

ان نجيب محفوظ يحاكم مجتمعه النائم من قبل

ففيها حركة العلم ، ونظرة البحث الاجتماعي وكذلك الثورات . اما هذا الشباب فهم نتاج كلية الاداب حيث الفلسفة والادب والاجتماع بجانب الهندسة والعلوم حيث القيادة الحقيقية لمعاودة النظر في كل ما سبق . وقد كان الصدام حادا ، لذلك حاول سيد الاكرمية حماية مركزه بالمصادرة ..

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، فقد قامت الحركة الجديدة بدراسة الاكرمية ذاتها ، وذلك عن طريق منشور يتحدث عنها ويزيل غطاء القداسة . فيشور محمود الاكرم فينتصل بتغلب الصناديقي الذي هجر طريق الاكرمية السائد . ولم يكن الصناديقي الا فكرة الادراك الواعي لحقيقة طريق الاكرم وفيه صفاء هذه الفكرة ، وقد تآزر موقفه وصورته لتأكيد هذا الجانب ، فيصفه المؤلف قائلا : « تأملت عيناه بحبوبة جذابة ونشاط روحي اضفى الى اساريه جمالا يجمع بين النضارة والعناية اخصت بها الشيخوخة المستكنة في احضان البراءة والتقوى » ص ٤٠

اما موقفه من هذا الحادث في الحارة فهو موقف المنظم والمدرک لصدقه ، فما قيل عن الاكرم لا يضيره بشيء ، فهو انسان عرف المعاناة وليس بالضرورة أن يكون في أصله منزها أو مقدسا « ما أجل الهدى بعد الضلالة ، ما أجل الاستقرار بعد التشرد ، ما أجل الجلال بلسد البهيمية ، انه مولاي الاكرم الذي بلغ بجده المراد وكفى » ص ٤٨

اما ما جاء في المنشور فهو يعتمد على ما سبق وأن كتبه ثلاثة من رواد الاكرمية نفسها « كانوا ثلاثة .. الشيخ ابو كبير اولهم ، وقد عكف على دراسة بيوت الاكرمية ، والشيخ الدرمللي ثانيهم ، وكان حجة في معرفة رجال الاكرمية ، والشيخ ابو العلاء ثالثهم وقد ولع بتاريخ اهواء القلوب » ص ٥٠

ان هذا الثلاثي المنتمي الى الاكرمية بصورة ما يشيرون الى جوهر الصراع ، فهم بحثوا في الحقيقة التي تم هذا الجيل الجديد . وقد أشار جورج طرابيشي الى انهم يمثلون الانبياء الثلاثة (١) . وهذا تصور لا يساعدنا النص كثيرا في دعمه ، فالذي نراه ان هؤلاء هم جماع الحركة العلمية في العصر الحديث ، فلم يكن ابو كبير ، دارس بيوت الاكرمية ، الا ذلك العالم الذي اثار دراسة الكون ، والتي زعمت المقولات السابقة ، او اية فكرة علمية يمكن ان تزعم المقولات السابقة . اما الثاني ، الشيخ الدرمللي ، فهو الذي قام بدراسة الاكرم واصله

فكانت الهزيمة ، والذي يحاول أن ينم أن جديد . وما اشبه بطل النوم بانساننا العربي في صدمته الحضارية، وتكتسه الجديدة .. اما تلك الانسة « المولدة » فمسي معناها الإغصاب ، فهي ابنة ومولدة في آن واحد ، ويربطها به حب لم تم حلقاته .. وقد يكون المعنى ملتصقا بالدلالة اللغوية فاذا هي المحدث من كل شيء، هي الجديد القادم .. ولكنها تقتل قبل ان يطلب يدها.

كانت القصتان السابقتان تمثلان الموقف الاول للنظر الجديد ، فحملت كل واحدة في ثناياها محاولة استشفاف اسباب التكتسب من خلال النماذج السابقة ، مسجلة الموقف العام الذي ادى اليها. وقد جاء الاسلوب منسجما مع الحالة السابقة . ولكن المؤلف لا يقف عند هذه الحدود ، فالاكتسار الحاد دافع اساسي لاعادة النظر في كسل الاسس الفكرية التي تبني المؤلف دراساتها والتعبير عنها . وقد تمثل هذا خطين رئيسيين :

الاول : هو المستوى الفكري العام الذي بلغ قمته في السابق بقصته « اولاد حارتنا » .

والثاني : ذلك الخط السياسي والاجتماعي الذي تمثل في مواقف متعددة تضمنتها قصصه الاجتماعية بصورة واضحة . يعود مرة أخرى لطرح هذه القضية بنفسوره الجديد والشكل الجديد .

تمثل الاول في قصته « حكاية بلا بداية ولا نهاية » ، ففيها عودة الى ما سبق طرحه ، ونعني بها فكرة العلم والدين . ولكن البدء في هذه القصة يبدأ من فصل الختام الذي انتهت عنده « اولاد حارتنا » دون ان يحدد المؤلف آنذاك مسارا واضحا . فالبدائية من لحظة تفجر الصراع بين محمود الاكرم ، زعيم الاكرمية وشباب الحارة الجدد الذين تزعمهم علي عويس شقيق المدرسة زينب . وفي آخوار الدائر بينهم وبينه تعرف اتجاه ثورتهم ، فهؤلاء الشباب طلاب حقيقة يجوبونها اكثر من أي شيء في الوجود ، وامايتهم هو ان التغيير هو الشيء الوحيد الخالد . وقد اهتموا بصورة خاصة بأوضاع الحارة ، وتمتع ناس بالتنم دون الآخرين . فراحوا يطالبون بالتقدم الاتي من ايمانهم الذي لا يتزعزع بالعلم الذي هو بذاته خير . وآزر هذا ايمانهم بالانسان . لذلك يسعون الى تزويق سنار الاكاذيب والتناقض القائم بين شعار الزهد والواقع القائم على الاستغلال، ويطلبون بالكسب عن التفتي بالخرافات (٣)

ان هذه الاراء تمثل جماع قضايا الافكار المعاصرة ،

وما أشبهه بداروين الذي درس أصل الإنسان ، فالأكرم
« جاء الحارة أشعث أغبر عاري الجسد لا يخطف
عن الحيوان الأمجم ٢٠٤ » ص ٤٨ .

أما أبو العلاء فهو يقترب من فرويد وعلماء النفس ،
فكما كشف هذا عن دور الجنس في حياة الإنسان فإن
الشيخ عني ببذرة الحب ، كان الحب همه الأول والآخر
وآمن بأن في قلب كل إنسان بذرة حب الهية مهما يكن
من مساراتها ، فهي تتجه في النهاية إلى الجيب الواحد
ص ٥٠ ، وكما أرجع فرويد كل الدوافع للجنس كذلك
عمل أبو العلاء ..

ويمكن ان يتجه التفسير إلى فروع أخرى من المعرفة
كالبحت في الدين وتاريخه الطويل ، أو دراسة الأسطورة
ولكن الذي نعتقد هو ان هؤلاء الثلاثة ما هم إلا جوانب
العلم المتعددة (٥) .. وتشابك الخيوط بعد ذلك
حينما تكشف زينب عن الصلة الحميمة بين
محمود الأكرم وعويس ، فالأول والد الثاني ،
أما الأم فهي الحبيبة القديسة زينب . وفي هذه
العلاقة نلمس التشابه مع قصة عروة الذي
كان بدوره مجهول النسب ، فلكنت هذه القصة
ان الدين هو والده الحقيقي ، فغيبه تبثت أول محاولة
لحسب المعرفة . وبهذه العلاقة يضع محفوظ النقاط
سوق الحروف ويميد تلك الصلة التي تقطعت وتحوّلت
إلى عداوة بين العلم والدين ، فهما يتكاملان ..
ويتضح هذا من الصور الهادي والدائر بين
تغلب الصناديقي والشباب اللائر بسجلا الوقت
الحقيقي لهذه العلاقة « قلت ان العالم من
رجال الله ، إلا إذا أراد ان يكون من رجال
الشيطان ، قالوا ليس من أهل الطريقة من
يلهج بالنسق والجشع فقلت ولا من العلماء من
يهب قدراته للدمار » ص ٤٩ . وقال لعويس : « إذا
طمعت عليك بالحكمة فأت خیر حفيد للآكرم » ص ٨٥ .
فليس العلم إلا فرما من هذه الشجرة الكبيرة ، وإذا كان
محفوظ قد ترك ختام « أولاد حارتنا » مفتوحا يقبل أكثر
من تفسير ، فانه في هذه القصة يوضح ملامح فكرته ،
فنتاتي كلية الشيخ محمود جامحة حين يقول : « عرفناها
معا في ليلة واحدة ، ها هو الماضي يعلق الحاضر
فيكونان معا كلا لا يتجزأ ص ٩٢ . لذلك يصلان إلى
الوحدة الواحدة التي تصهرها في بوتقة واحدة ، فإذا
كان عويس يريد ان يوزع الثروة على أصحابها
الحقيقيين فان محمود الأكرم يريد ان يعلن الحقيقة ..
فهذا هو منهجه الخلقي ، فالحقيقة لا يمكن ان تتجزأ ،

فسيكون كل من الأكرم وابنه منهجا واحدا ،
لا يمكن إلا الكتب ، المعرفة ، العلم ، القانون الخلقي ،
فهذه هي المجزة نجيب محفوظ ، وحدة
العلم والدين ، الاشتراكية والتصوف .

وتواصل القصة التالية — حارة العشاق — مناقشة
هذا الموضوع ، ولكن عن طريق رصد مسيرة الإنسان
عاطفيا ودينيا وفكريا وعلميا ، فهذه القصة تسجيل
لهذا المسار ، حارة دوران الحياة ضمن هذا الخط
الموصل . وقد لا تختلف تفسيرات الباحثين لهذه القصة ،
وخاصة في قسمها الأول ، فبعد الله ، بطل القصة ، هو
هذا الإنسان الذي تعرض لشتى الاختبارات من خلال
اختلال بيقته ، فهذا البتين كان يهيه السعادة والهناء
« هنية » بمعنى « الزوجة » هنية .. ولكن
لا يكاد الشك يداخله حتى يخل ميزان حياته فيطلق
زوجته أو سمادته . وتبدأ مشكلته حين خطأ أول مراحل
الزنى ، فقد كان في بادئ الأمر يعيش مرحلته البدائية ،
فحياته عمل مستمر في الارتشيق ، الصورة الحديثة
للكتب . وتأتي الترقية الجديدة أو التطور ليهنحه
بعض الفراغ ، فبدأ التفكير والتأمل ، والفكر يجلب
الشك (٦) ، لذلك يطلق زوجته .

ويبرز دور الدين في حياته ، فالإمام يزيل الشك من
أمام عينيه ، ويدعوه إلى الحياة الحق التي لا تأتي إلا
أحين يملأ القلب بالإيمان .. ويعود عبد الله مرة
أخرى إلى هنية ويتردد في الوقت نفسه على دروس
الشيخ الدينية . ص ١١٥ ، ١١٧ .

ولكن الشك يداخله من جديد ، فينتقم اليه في هذه
المرّة المدرس عنتر الذي يوجه بدوره إلى المعرفة العقلية
أو الفلسفية (٧) . ولم تكن هذه بقدارة كذلك على
ملء نفسه فيكون المكان الأخير عند شخصية مراد عبد
القوي ، شيخ الحارة الذي يعتمد المعرفة العلمية كما
هي ، وينظر إلى الشيء من حيث هو « الحارة كل لا
يتجزأ وليس من العسير ان أعرف ما ينتمى وما
يضرها ، أما أهلها فأفراد لا حصر لهم ، وتعتمد مشاكلهم
بتمدد أهولهم » . ص ١٥٢ . وهو في منهجه أقرب إلى
أسلوب العلم ، لا يستطيع الجزم بشيء ، اني أعرف
على سبيل المثال ان (أ) قابل (ب) في الساعة (د) في
المكان (هـ) ، الواقعة مؤكدة ولكن ماذا تعني عند أهل
الاختصاص ؟ . قد يعقب ذلك القبض على (أ) أو على
(ب) ، أو على (أ) و (ب) معا ، وقد لا يقع شيء
البتة » . ص ١٥٦ (٨)

هذه فنانة بجسدها الجميل ، يتبعها الأمريكي والفيتنامي وحربها المستمرة ، الأول يطلق النار في كل الجهات ، بينما تلد امرأة ستة توأم ، ومن هذا وذلك تأتي المجاعة ، فإذا الأزمة المالية على السطح ، ولكن الصراع يستمر بين التراث وقيمته ودعوة النعمة . وهناك الصراع العقائدي بين الروسي والأمريكي ، الأول حيث الرفيق والثاني عينه مركزة على الزبون . الأول يفسر الكون ونظائمه على ضوء نظرية الصراع ، والثاني رأى الله فوق البيت الأبيض . فلا عجب أن ينور الجيل الجديد .. فهناك مورثات لا تزال باقية متبطة بالثأر والصراع داخل الفن بين جديدة وقديمة .

هكذا هو صراع الأجيال .. ولكن هناك صراعا آخر متشابكا بالفرقة العنصرية من جانب وضياك فلسطين من جانب آخر . هناك أيضا القوة المتنفذة المنتشرة كالإخطبوط ، فينتشر النفاق الاجتماعي ، ويأتي الفن والفكر تائهين في الوعي واللاوعي ، المرض النفسي والعقلي والديالكتيك والوجودية .. الخ . أما الكتابة فمصنعة لا تعتمد على الحوار ، لذلك تأتي أجابة أي تساؤل لا تزيد عن كونها : محتفل ، بين بين ، نعم و لا ، لعل وعسى .. الخ .

وهكذا تكتمل الحلقة ، ولم يكن ذلك الرجل صاحب البذلة السوداء الذي كان أول القادمين الان نقطة الضمير المثقلة بالهموم ، او محور الاوازن المتراكمة في النفس ، ويعود الانسان الى موقعه فيهب الى ارض الحجرة لمعاينة الحياة اليومية وهو حامل لكل هذه الهموم ..

ولكن لماذا كل هذا في حياة الانسان ؟ . لعل « الوجه الآخر » - من مجموعة (تحت المظلة) - تحاول الاجابة من خلال النفاذ في هذه المسرة الى داخله بعد تلك السباحة التاريفية ، والعرض المعاصر ، فلا بد من ان تكتمل الحلقة ..

تتسم هذه القصة بالالامح الواضحة ، وفيها عودة الى التباين الذي كان محفوظ يحفل به قديما حين يقدم شخصيتين متقابلتين من حيث المبدأ ، ففي قصة اخوين ، احدهما مثل التبرد والفروج على القاتون ، والثاني يمثله . وهذان الاخوان بدورهما يجسدان لنا التوازن الذي يميز فيه الشخص الثالث المربي .. فنشده الصداقة اليها معا .

ويحدث الصراع بين الاثنين فيسقط الاخ الخارج عن القانون صريحا . وقد احدثت هذه الحادثة هزة عند



ولكن عبد القوي إذا كان قد مهد لعودة عبدالله الى هنيه ، فانه لم يفتح باب السعادة على مصراعيه ، كما فعل الآخرون ، ولكنه أعطاه نصف السعادة وفرصة العودة اليها ، إذا أراد ، فهو لا يملك أجوبة جاهزة فترك الحارة تعيش اختيارها الخاص . كل واحد حسب فكره ، فهناك من تمسك بزوجه وسعادته ، وقنع بنصف الحقيقة ، لذلك يعود الى زوجته فهو لا يملك الحقيقة كلها ، لذلك هو سعيد بنسبة ٥٠٪ . فالانسان في ضوء العلم الحديث لا يملك الحقيقة كاملة فالحقيقة نسبية .

اتنا لا نستطيع تحليل هذه القصة الا من زاوية التسجيل والرصد ، فمحفوظ تتبع المسيرة البشرية دون أن يضع أمامنا أي نقطة ضوء تمثل تصويره الخاص ، اللهم الا الحكم الأخير وهو ان العلم لا يمكن أن يبين الا نصف الحقيقة ، ومن ثم نصف السعادة . ولعل هذا آت من أن المدرس والإمام وضعا في السجن ، فيا ترى لو أطلق سراحهما هل تكتمل السعادة بنصفها الثاني ؟

ولكن إذا كانت قصة « حارة العشاق » متباعدة تاريخية لمسارات فكر الانسان ، فان « فنجان شاي » من مجموعة - « شهر العسل » - تمثل محاولة لدراسة ذهنه المعاصر من خلال اتساع همومه ، فهي رحلة تتسم بطابع شمولي لقضايا الانسان المعاصرة في يومه العادي ، وصلته بعالمه ودنيا الناس من حوله . هي دخول في الذهن وإقامة كيان لعالم يتحرك وينتشر في هذا العنق المعاصر ، والذي قد يلتقي بكل هذا حين قراءة الجريدة وهو يشرب فنجان شاي . فنتتجهم كلمات الصحيفة الى صورة متحركة والى معان تدق في ذهن هذا الجالس .

مثلت القصص السابقة مراجعات لموقف محفوظ من قضايا الإنسان العلية ، ولكن للمؤلف كذلك موقف اجتماعي خاص ، لذلك يحاول القيام بهراجعات عامة لمواقفه السابقة . وتبطلت هذه المراجعات في بعض قصص هذه المجموعات ، قصة « روبابيكيا » تقوم على علاقة بين شاب وامرأة وتاجر روبابيكيا يسمى الشاب لخبطة المرأة ، وبعد الحوار يبرز التاجر مقلما بأنه كان زوجا لها ، وأنه كان تاجر غلال ناجحا ثم افلس فانصلت عنه مع ان حبها ما زال باقيا ، ولكنها تكره العجز . واتخذ بعد ذلك اسم « الملعون » وجعل مجلسه المخازن في قهوة يسوق الكائنو .. ويتزوج الشاب الصانع المرأة ، ويعيش معها حتى يشرف على الافلاس ، فيعلن عن عجزه فتنفصل عنه ، فيعود باحضا عن « الملعون » فيتمرضض لضرب ببحر حين سأل عنه . ثم يلتقي به فيشتركان في مشروع يعتمد على الارهاب ، والسهمرة والتجارة بفضائع الناس ، وينجحان فتأتي المرأة لتقترب منهما . فيعرض عليها العودة ، ولكن هذا غير ممكن الا اذا قامت المعجزة . ويستدعي طيبيا لتحقيق على يديه المعجزة . ولكن هذا الطبيب ينهل على كل ثمن نسي المنزل ويحطمه ، ليقتنى الصانع فاهلا بين الخرائب .. ويطل من جديد تاجر « الروبابيكيا » الذي لا يجد ما يشتره من هذه البقايا الا الرجل نفسه ، فهو التحفة القديمة الوحيدة الباقية التي لم تمس ويحمله في عريته سائرا في طريق الكورنيش . وهناك ، كما البداية ، كانت المرأة تسير وكانها تبحث عن رجل جديد ..

لقد حاولنا تركيز احداث القصة المليئة بالحوار والاحداث ، ولكن هذا الخط العام قد يسر لنا تلخيص دلالة احداث هذه القصة ، التي رأت فيها المصلحة الزيت : ان المرأة ترمز الى الدنيا التي يقبل عليها الرجل ، فاذا احس بالضعف كان ذلك ايذانا بانتهاء الصلة بينهما . وليست قصة تاجر الروبابيكيا الا تأكيدا للمعنى السابق ، فالحيوة تقبل على الناس واحدا بعد الآخر بقدر احساسهم بالقدرة عليها ، ولكن النصح لا يجدي فالدورة لا بد ان تتم . ويتم تفسير بقية اللوحات من هذا المنطلق (٩)

ان هذا الرأي — على وجهاته — قد يمثل احد مناهي التفسير المخطئة لهذه القصة ، فالغوض قد يجعل

الصديق فاختل توازنه فراح يعرج ، وقد قرر ان ينبذ التربية والقواعد والطقوس ليعمل مصورا امرج ، ولكنه يجهل الرسم ، لذلك سيقبض على الادوات ويدير كل شيء .

الانطباع القريب الذي تتركه فينا هذه القصة هو ذلك الاحساس بان الثلاثة شيء واحد « كنا ثلاثة ، وكنا واحدا » . ص ٥٢ ، فالمصورة المنطبعة في ذهن هي ان الاخوين مثلا طرفين متناقضين في داخل الانسان ، يتلخصان بعبارتين تملآن حدة المعنى المقصود فيمثل القانون يرى في اعمال اخيه المجرم « اعتداء » برمجة ، بلطجة ، مخدرات ، عريضة ، سرقة ونهب ، هتك اعراض » . ص ٥٢ . ويرى الآخر المصورة المعاكسة « العقل .. الاتزان .. الاعتدال .. النظام .. الاجتهاد .. الادب ، انه رمز الموت في عيني » . ص ٥٤ .

اما الثالث فهذان يمثلان جوانب حياته ، يعيش هذين .. وقد كان الصراع بينهما يمثل خسارة شخصية على كل الوجوه . فالاول عاطفته وانطلاقتها وجوهرها وتهدرها . اما الآخر فمقله وقوانينه وانضباطه وامانه و « موقف الحياء بينهما لا يهضبه ضيري .. فلا بد من الانحياز الى عثمان . غير ان عواطفني هزرت علي واقننت بمرارة ومزقتني تمزيقا . فكيف احرز رجال الامن انتصارات حاسمة داخلتي كاتبة واضفقت السن خلو عالمي من رمضان ومرحه واساطيره ومغامراته في دنيا الجنس والتحدّي . وكما فاز الرجل في مطاردة ونشر الرعب من حوله وهدد اخضاه انتفض قلبي واستشعرت خوفا من تسلط قوى الهدم والعريضة وتمكنها من تقويض دعائم الامن والحضارة . وانهم امري على نفسي ولم اعد ادري اي رجل اكون ، ولا ماذا ارمو ، ولا كيف ابلغ التوازن المنشود ؟ هكذا تابعت انباء المعركة باهتمام وانتمال وخجل وحيرة » . ص ٦٠ — ٦١ .

ان دلالة النص واضحة في هذا الحوار الداخلي ، فغالما يعيش هذا التمزق بين رغبة الانطلاق غير المتقيدة ، وتحكم القانون بحيث تحول الى جمود وسكون كالمسوت ، والانسان مزيج من الانطلاق والانضباط . لذلك عندما انتصر احدهما كانت النتيجة ان اصبح اعرج . وهذه الصورة المعضوية تسجيل للعرج الداخلي واختلال التوازن ، لذلك تعجرت لديه رغبة التدمير . ص ٦١ .

وراح يتبادل حذف « الطوب » مع الجيران . وفي نفس الوقت يتكشfan جثة أم عبد الله المقتولة .

ويقوم هذا الغليظ المقتحم ومن معه بحاكمة الشاب فهم الشرطة والغضاة . ويأتي الحكم .. الرجل الغليظ هو القاتل ، فيكون نصيبه السلامة ، أما الشاب فيحكم عليه بالاعدام لانتهاكه حرمة الجثة .. وفجأة يظهر من دواب الملابس رجل عملاق ، قاتونه الوحيد هو القوة ، ويزعم أنه صاحب المنزل بينما يتهمون به بأنه لص منازل . ويحدث الموقف بين الرجل الغليظ والعماق غليخس الشاب الموقف بقوله : « ما أحوجنا إلى تحكيم نزيه ، فهذا رجل يتوهم أنه قاتل وهو نفسي الحقيقة قاتل ، وذلك رجل آخر يزعم أنه صاحب البيت وتؤكدون أنه لص منازل حقير ، وأنا أقول أننسي صاحب البيت على حين يتهمني هؤلاء بانني قاتل المرأة الطيبة . فما المخرج من هذه الفوضى ؟ لا مفر من أن نستعدي الشرطة .. ! » ص ٢٩ .. ويعلقون بدورهم أن المشاكل ستبدأ بحجم الشرطة ، فهي سلسلة من المحاضر والمناقشات والتهام والدفاع .. وتؤجل الجلسات ولن ينطق بالحكم .. وتكون النتيجة الوصول إلى القول بأن قضية الشاب منتهية ، فقد حكم عليه بالاعدام ، فلا بأس من المساواة بين الآخرين . ولكن العملاق يصر على عدم المساواة .

وفي هذه اللحظة تشتعل النار فيسقط كل من العملاق والرجل الغليظ مقتولين بيد الشاب والفئة . ويتحطم الباب ويدخل رجال متهورون . « وارتطمت في الشقة الجديدة قوى المقاومة بقوى الغدر ، فانتحطت في معركة شاملة تحت السنة الذهب المنلغ والماء المتدفق وقطع الاثلاث المتناثرة » ص ٣٢ .. وتعود الشقة إلى الشاب والفئة ، وقد نجيا ولم يضع شيء لا يمكن تعويضه ..

إنه بالإمكان توجيه القصة توجيها سياسيا ، بحيث تسجل الأحداث السياسية في الأمة العربية ، وخاصة مصر ، وذلك من خلال الأوضاع الداخلية والخارجية . فالرجل الغليظ هو قاتل أم عبد الله التي قد تكون السلطة من حيث مفهومها الواجب توافره في خادمة الشعب . ولكن قدوم هذه السلطة الجديدة قضت على المفهوم السابق وعلى حرية الشاب والفئة في الوقت نفسه . بل إن العداوة المتوترة بين من في المنزل والجيران نتيجة لحذف « الطوب » ، يفسر لنا الحلة

التفسير مختلفة ومقتمة في آن واحد . ولكن الرائي الذي تصوره يأتي من ادراكنا للظرف السياسي الذي كانت تعيشه الأمة إبان كتابتها . وعندما نتحدث عن المعنى السياسي نقصد به الجانب العام الذي يمثل مراجعة المؤلف لمواقفه السابقة بعد حدوث التمسكة . فلماذا لا تكون المرأة هي الرمز الحي للثورة المستمرة التي لا تسلم بالعجز وترافق اليد ؟ فعندما تقدم لها من قبلها إلى تحقيق التوافق ثبتت به ، ولكن عندما ارتضت يدهم اسم الانفصال ، فراح يبحث عن الملعون ، وما هو إلا الزوج السابق ، الماضي المتبوء . ويحاولان معا أن يتشبها بالحياة ، فيتاجران بأسرار الناس ولا يخفى هذا المعنى على أحد . وسرعان ما يمتلئ البيت بالتحف ، فقد نصيا السابق ، أو توفرت وسائل النسيان ، فبين يدي الثوار المنتهين والمنبوذين الطعام والشراب والتحف وأدوات الترفيه والحدائق والملاهي ، لذلك تحول السابق إلى جنون . ص ١٩١ - ١٩٢ ..

ويأتي طبيب شاب ، ونجد فيه شبيها بالصالح حين كان شابا ، بل إنها شيء واحد ، الأول الثورة المنتهية ، والثاني الثورة الجديدة المرتدية لباس العلم . وتهم سابقة بأنه بدد ماضيه بالظلام ، فقد أصدر شبيهه حينما ابتعد عنها وتدرج إليه العجز ، ويحطم الطبيب كل تحف الماضي . وتحول الثائر القديم إلى تحفة تحمل في عربة التاريخ ، بينما المرأة لا تزال على شاطئ الكورنيش ، تسمر في اتجاه مضاد .. باحثة عن زوج جديد .. عن ثائر جديد !

وإذا نظرنا إلى هذه القصة ونحن نتصور تاريخنا المعاصر ، القريب منه والبعيد ، نجد أن هذا التفسير يمثل ، بصورة من الصور ، ثورانا المتعاقبة وبالأذات ثورة ١٩ ، و٢٣ يوليو . ولكن هذا المعنى القريب هو جزء من التصور يفرضه الواقع ، بينما تنسحب القصة على كل ثورة دب فيها الوهن وأصبحت ماضيا .



ولا تخرج قصة « شهر العسل » - من المجموعة المسماة بهذا الاسم - عن هذا الخط ، فنضمنا في محور تتعدد حوله التفسير . فنحن أمام عملية اقتحام وسيطرة وتخريب وتهديم ، والشاب والفئة يقدمان إلى شقتها الجديدة فلا يجدان أم عبد الله مديرة البيت ، ولكن يلتقيان برجل غليظ كأنه مصارع محترف ، ويزعم أنه ابن أم عبد الله ، وقد سيطر على الشقة وحدد اتابعتهما . وحولها إلى محل للرقص والغناء والمصارعة

المشاجرات ماذا خاصا .. تهرع الى الضريح لتستر به . وهناك تلقى بولي وخادم للضريح ، ويحصلان اغصاب مالها . فيدخل الشرطي طرعا في الغنية . ويجتمع الثلاثة الولي ، ممثل الفكر السائد ، والخادم القائم على الرعاية ، يجتمعان على سرقتها . اما الشرطي ممثل قوة السلطة ، فيصر على ان يستولي على النصب الاكبر . وفي مثل هذه اللحظة يقدم عجوز وشباب ضريبان يرغبان في زيارة الضريح ، ويحاول الشرطي ان يمنعهما بينما كان الشاب يناجي طبيب القلوب . وتزداد حدة الموقف بين الشرطي والجمهور المتحمس للآخر . ويدخل الشاب الى الضريح ثم يخرج وقد زال عنه وقد رأى في الداخل الفتاة وهي ترسف غسي الاغلال . فيزداد تنجر الموقف .. فقد هبطت هذه من السماء الى الارض التعيسة ، فجمعت هذه المعجزة بين الناس الذين فرقتهم الهوم، ولكن جواهرها للطيبين لا للمتصبين ، وتسر الى المجرمين الذين اختطفوا جواهرها ، ويحدد الشاب الملامح العامة « ارات الروح ان تجود ببعض الجواهر على الفقراء فسرقتها اللسان ، ولكن ها هي الجواهر تعود الى اصحابها ! » « وذاك هي رسالة طبيب القلوب اليكم » من ١٣٦ .



الاعلامية التي كانت وراء الكثير من المشاكل السياسية، غابت الى العزلة ، لذلك أصبح اهل الطريق اعداء لمن في الشقة . ص ٩ - ١٠ .. فهو يسجل مرحلة ما قبل النكسة . وقد زعم الرجل الغليظ ان هذا نوع من الدفاع عن الشقة . وقد احاط بهذا الرجل الغليظ مجموعة من الراقصين والمغنين ، او الجوقة كما وصفهم .. وقد عزز هذا ايضا الحصر الاعلامي والفكري « الباب مغلق ، التليفون معطل ، النافذة ينهل منها الطوب » ص ١٧ .. « لذلك كان لا بد من الانتظار حتى يتجرعوا التنبذ بافراط حتى يفقدوا الوعي ص ١٨ .. والتنبذ هنا هو غرور ومتعة السلطة، ولعل تلك الاشارة العابرة توجه النظر الى هذا التفسير .. فمهم الشرطة والقضاة .. ص ٢٢ ..

ولكن الرجل العملاق ، لس المنازل ، يريد التفرّد في البيت ، فما اشبهه باسرائيل المحتلة . ولا يعني الشرطة هنا الا هيئة الامم باروتتها وخطيها . ولكن النار تشتمل فهي الثورة الجديدة ، روح المقاومة والفكر الجديد الذي سيميد التوازن من جديد ، فتأتي الاشارة المباشرة لتضع خطأ تحت السطور حتى يقول : « وارتطبت في الشقة الجديدة قوى المقاومة بقوى الشر » ..

وهذا التفسير قد يكون واحدا من عدة تفسيرات ، فان وجهتنا نظرت الى المحيط السياسي وفسرت من خلاله ، وهو وقت وفتي ومحدود ، ولكنه في الموم يجسد القضية العابة حين سيطرت قوى الضغط فقصت على الحرية .

ان هذا الموقف السياسي قد يدعو المؤلف الى متابعة مناشاته لراكر الايمان القديمة عنده ، فاذا كانت الاشتراكية هدفا من اهدافه (١٠) ، فاته من الضروري ان تكون هناك مراجعات للتطبيق الذي تم لذلك الامل ، وتسجيل الموقف الذي يراه ، وما اشبهه باولئك الكتاب الكبار الذين حاولوا تسليط الضوء على عناصر التجربة الشيوعية من وجهتها السلبية ، وبمها كانت الدوافع التي وقتت وراء هذا ، فان هناك دائما رايًا مخلصا للحقيقة من حيث هي .

ان قصة « روح طبيب القلوب » - من مجموعة شهر العسل - تقوم على هذا الاساس ، فهي قصة فتاة مجهولة الهوية تهرع نحو ضريح ، هي من هذه الدنيا ، تزعمها المشاجرات فيها وان كان لهذه

هوامش

- ١ - مجلة الهلال : فبراير ١٩٧٠ . ويؤكد هذا المصنف في العصور القشور في مجلة الآداب - يوليو ١٩٧٢ ، يقول .. وقد أعجبت بتبليغات وكتابت عدد كبير من النقد برغم اختلاف تفسيراتهم ونواياهم .
- ٢ - الآداب ، يوليو ١٩٧٢ ص ٤١
- ٣ - حكاية بلا بداية ولا نهاية ، ص ١٥ ، ١٧ - ٢٢
- ٤ - الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية .. ص ١٢١
- ٥ - يقول محمود الأكرم : - (يا لكثيرات ، عرفت ذات يوم أسماء جذابة كارتشيديس ونيوتن ، وحقق غريبة كالجزيرة والحركة ، ولم تصور وقتذاك أنها منتظرنا خلف كالمزين .. ص ١٢
- ٦ - د. غاطية موسى : في الرواية العربية المعاصرة ، ص ١٢٢ راجع كذلك « الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية » هاشم ص ٩٠ حيث يقول المؤلف : « ترى ألا ينبغي أن نرى في العمل خارج الهيئة قبل الترقية رمزاً إلى ما قبل التاريخ ؟ »
- ٧ - الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية ص ٩٩ ، راجع كذلك « في الرواية العربية المعاصرة » حيث ترى المؤلف أن شخصية عتر هو العلم ص ١٢٤
- ٨ - يرى جورج طرابيشي هذا الرأي الذي عرّفناه وهو الاقرب إلى المصنف القصور في تصورنا ، بينما تعالج غاطية موسى في كتابها المسالك الفكر شخصية مراد عبد القوي على أنه الفولة الحديثة بقولها الصيغة التي لا تغفل بالفرق إلا في حدود صفاته الاجتماعية - ص ١٢٥
- ٩ - انظر نميل الرأي ضمن مقالة عبد القادر الشط الافتتاحية ، مجلة الجيلة ، مايو ١٩٧١
- ١٠ - لم يغب نجيب محفوظ هذا الاتهام في كثير من أهاديه واختياراته دون أن يثقل هذا الاتهام خصوصاً كلياً للنظرية ، ويقول في رسالة شخصية للفكر محمد حسن عبدالله نشرت في مجلة البيان الكويتية ، مايو ١٩٧٢ ، معلقاً على دراسة الدكتور هبة حسن للاسلامية والروحية في ادب محفوظ .. يقول : « ... ولعل الاضطراب القاسي من قراءة أدبي أحياناً يصدره أن قلبي يجمع بين التطلع لله والابتناء بالعلم والابتناء للاشراكية ومحاربة الجمع بين الله والاشراكية مثلاً للظن بالاعلام عند قوم وبالمحافظة عند الآخرين . وطالما عجبت من أن تغفل الفلسفة الشيعية ديناً ، إذ أنني بعيني تليدلاً للفلسفة أعلم أنها ابنية تتجدد مع تطور الزمن ولا تصلح للقيادة على الإطلاق . أما ما يطرحه أصحابي في الشيوعية فهو عدالتها الاجتماعية المخلقة والتي لم تطبق في روسيا نفسها .. ألا وهي « من كل فليس قدر طاقته ولكل على قدر حاجته » ، فهو أساس كابل من المعاملة الاجتماعية يجعل من البشرية أسرة سماوية ، ولكن أي ضرورة تسوجب لكي أومن بذلك أن أومن قبلًا بالتفسير المادي أو بتأكل الله ؟ »

وفي هذه اللحظة يبرز الوجه الذي زعم أن هذه الحلبي مسروقة منه ، ولكن أصوات « الشعب » تكذبه . وتكون وصية الفتاة أن « أماله خلال لكم » ! ص ١٢٨ ويدعو الشاب إلى تقاسم المال بالعدل .. وبهذا تحققت رسالة طبيب القلوب .. فيهمج الجمهور على الرجال الأربعة ليقيدوهم . ص ١٣٩ ..

وفي هذه المواقف تتساقط الفتاة في ذهول عن موقف الجميع حين يركمون ويهللون ويكبرون بإشارة من يدها ، فقد تحولت إلى مرحلة العبادة . ولكن الأربعة لا يتوقفون ، فهناك ثورة مضادة مسخرة لخدمتهم غيميدون تمثيل الرواية ، ولكن بروح من عندهم همي نفس الروح السابقة ، ولكن إذا خرجت عن المرسوم مزنت أربا . ص ١٤٣ ..

وتأتي الفتاة من جديد لتحدث بما يرضى به الأربعة السابقون ، فما أساء إليها ، إلى فكرتها إلا سوء الفهم والتأويل ، وأنها لا تهب المال الفاني ، وإنها تظفر القلوب لا لتحض على النهب والسرقة ! لذلك عادت إلى الأمر ؟ ص ١٤٧ - ١٤٨ ..

ولكن سرعان ما تكشف الحقيقة فتدور معركة بين رجال الطائفتين ، معركة استعمل فيها كل الوسائل ، ورأى شاب الأمس الفتاة وهي تقاوم كرجل فخطب له أنها غتاته المزعومة فإزداد قوة واستبسلاً واستمرت المعركة وهي تزداد عنفاً ووحشية . ص ١٥٠ ..

أنتا إذا نظرتا إلى هذه القصة من خلال تفسيرنا السابق تتضح رموزها ، فهو موقف يسجله ضد مستغلي الشعارات وتسخرها بحيث تتحول إلى النقيض . ولكن أيها المؤلف لا يزال باقياً . لهذا يرصد كل هذه التغيرات في الواقع ، ويؤكد في الوقت ذاته أن الصراع لا يزال دائراً .



إن الملاحظة الأخيرة التي يسجلها في الختام ، هي أن هذا الاختلال في الشكل إنما يمثل وسيلة فنية لنقل الحادثة وصداها النفسي وصورتها الفكرية ، فهذه الصورة المادية والمشوهة أحياناً دالة على معناها ، فالميلان والرجل الغليظ في قصة « شهر العسل » ، بجنونهما وتخريبهما وعدم المنطقية في تصرفاتهما إنما تجسيد للواقع بصورته المخيف . تصوير له ولصداه في النفس والذهن .





إنطباعات
وآراء حول
كتاب

“فهد العسكري” حياته وشعره

٣ بين ملكتي الوعي والتعبير

عن طريق ملكتي الوعي والتعبير يمكن ان يتمتع شخصيات الآخرين ويدخل في افكارهم ويعبر عنها .. لا شك ان الانسان اعرف بنفسه من غيره ولكن الله انعم عليه بملكة الوعي .. انه عن طريق هذه الملكة يمكن ان يتصور ما يدور في بال غيره من الناس اذا فهم نفسيته جيدا او كان لديه الادراك بما يمكن ان تكون عليه افكارهم وتصوراتهم واحاسيسهم وتصرفاتهم تحت ظروف معينة .. وبالرغم من ان معرفة الانسان بنفسه

اي وقع في النفس - صاح لراى
مستيت يختال في الاكفان
تترأى في عينه صور قد
اخرست عبقريه الفنان
رسمتها بريشة الحزم والمزم
يد الحق في اتق معان

ان هنالك حقيقة لا شك في سلامتها وهي ان الشاعر

عنها بقدر ما يملكه من موهبة الوعي بالذات أو بالغير لكي تكون الصورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة وإلى الواقع .. وتأكيذا لصحة ما أقول ، وأنا متيقن منه ، فإن بالإمكان الاطلاع على الادب العالمي وأخذ النماذج منه نظرا لأن المسرحية الشعرية أو الملحمة الشعرية لم يدخلها على الادب العربي بالشكل المتعارف عليه اليوم إلا مؤخرا ونائرا بالاتجاهات الأدبية السائدة في الغرب .. نرى أن أعظم الشعراء وأكثرهم شهرة وخلودا هم كتاب المسرحيات أو الملحمة سواء في الادب الحديث أو في الادب القديم .

فالشعر اليوناني والشعر اللاتيني كان أكثره تألغا وخلودا هو شعر الملحمة والمسرحيات كإلياذة وأوديسة هوميروس والتكميديا الإلهية لدانتي ومسرحية أوديب لسوفكلس .. بل أننا نكفي أن نشير إلى شكسبير الشاعر الإنجليزي كمثال بارز لما نقول .. فقد كان من أعظم الشعراء الذين اجتنبتم هذه الأرض .. وهو يوحى مما جاءه الله به من ملكتي الوعي والتعبير استطاع أن يقتبس مختلف الشخصيات البشرية ويغوص في أعماقتها ويعبر عنها بشعر عبقري في الظروف المختلفة التي صورها لها .. فهناك مرتكب الجريمة في هاملت وهناك السائق في كليبواترا وهناك المراهب في تاجر البدنية وهناك التآمر في يوليوس قيصر وهناك الغيور

وبغيره محدودة ، ولا يعدو الأمر أن يكون نسيبا ، إلا أننا بقدر ما لدينا من ملكة الوعي ، بقدر ما يكون احساسنا بأفكار غيرنا وتصوراتهم وأحاسيسهم وتصرفاتهم أقرب إلى الصدق .. وقد يبدو هذا الكلام غامضا ولكني أعنيه جيدا .. فإن الإنسان مكون من عقل وعاطفة .. ومن الصعب أن يفصل أحدهما عن الأخرى .. ولا يمكن للإنسان أن يكون عقلا خالصا ولا يمكن أن يكون عاطفة خالصة .. ولا بد أن يكون هناك ميزان دقيق يتحكم فيهما حتى لا يطنبي أحدهما على الأخرى .. وحيث لا يبعدنا الاستطراد في هذا المعنى عن موضوعنا الأصلي فأنسي أقول أن معرفة الإنسان بنفسه ليست صحيحة مائة بالمائة نظرا لأن هناك غرائز ذاتية تتدخل في تلويين هذه المعرفة .. وما ينطبق على النفس ينطبق على الغير .. فالحياد الإنساني المطلق أمر مستحيل .. إلا أنه بقدر ما يستطيع الإنسان إخضاع غرائزه الذاتية في تكوين معرفته بذاته أو بغيره تكون هذه المعرفة أقرب إلى الصدق وأقرب إلى الحقيقة .. هذا بالإضافة إلى أن الإنسان درج على ألا يظهر لغيره كل ما يعرفه عن نفسه .. وفي كثير من الأحيان عن غيره .. لذلك فإن المعرفة بالنفس أو بالغير كما نسميها أو نقرأها تكون في الواقع قد مرت بكثير من المراحل التي تعدل فيها وتغير من ملاحظها ، بحيث لا يمكن أن تكون على حقيقتها كما نسميها أو نقرأها .. فما بالك بالمراحل النفسية الغريزية التي تشترك أيضا اشتراكا فعلياً في تغير الملحمة الأصلية لصورة المعرفة الإنسانية بالذات أو بالغير .. فإذا كانت الصورة بالأصل معدلة أو مغيرة بما ينسجم وغرائز الإنسان التي هي جزء من كيانه الذاتي العام فأننا يجب ألا نتوقع أن تكون صورة معرفة الإنسان بذاته أو بغيره هي الصورة الحقيقية الأصلية .. وذلك أن الرقابة الذاتية تبيح للناس الاطلاع على الجوانب التي تعنتد أنها يمكن الاطلاع عليها وتمنع الجوانب التي تعنتد أنها غير مباحة للغير أن قولاً ، أو كتابة ، أو فعلاً ..

ونعود للموضوع الأصلي الخاص بملكتي الوعي والتعبير ونقول أنه ما دامت الأمور على هذا المستوى من التعقيد .. وما دامت الصورة الذاتية للنفس البشرية كما يعبر عنها صاحبها في الشعر الخاص .. أو كما يعبر عنها غيرها في الشعر المسرحي أو الملحي ، لا يمكن أن تكون الحقيقة بذاتها ، فلا ضير إذن أن يقتبس الشاعر شخصيات غيره على مختلف أخلاصهم وطبائعهم وتفكيرهم وظروفهم الاجتماعية أو المعيشية وأن يعبر



في أوثلو وهناك المجنون في الملك لير الخ .. هذا عدا عشرات الشخصيات الثانوية المختلفة التي ترد في رواياته وأحاسيسها وتصرفاتها تحت مختلف الظروف الحياتية التي يختارها الشاعر لها حسب متطلبات المسرحية وحبيكتها الفنية .. ففي هذه المسرحيات الشعرية وفي كثير غيرها استطاع شكسبير أن يعبر عن مختلف الأحاسيس الإنسانية بمهارة عظيمة ، ذلك لأنه يتمتع بملكتي الوعي والتعبير .. فتقتبس شخصياتها وعاشي حياتها وعبر عن مكوناتها كما كان يتصورها فيما لو واجه نفس الظروف وعاشي في نفس الأجواء .. أنه يكني على سبيل المثال الإشارة إلى مسرحية كينج

لذلك فإن وجهة نظري تختلف أساساً عما ورد في صفحة ٧٩ - ٨٠ تحت باب (الشعر الصادق) من أنه إذا « تعدد الأشخاص في الشعر فقد ميزته الشعرية الفنية ، حيث أنه لكل شخص من هذه الشخصيات طبيعة الخاصة ، وكيانه الخاص ، ونفسه الخاصة ، ما دام الأمر كذلك فكيف يجوز لشاعر واحد له كيانه الخاص ، وطبيعته الخاصة ، وشعوره الذي يختلف عن شعور الآخرين ، كيف له أن يأتي بشعر على السنة هؤلاء الناس الكثيرين ، الذين يخطفون في مشاعرهم وأحاسيسهم؟ أننا نعتقد أنه من العبث بالشعر أن نخضعه لمثل هذه القيود الفنية التي تفرضها المسرحيات أو القصص أو الروايات » .. واعتقد أن ما سبق أن شرحته في هذا الباب كاف لتوضيح ما أردت الوصول إليه .. وأضيف إلى أن الشاعر الموهوب المتكبر الخصب الخيال المرفه الإحساس المتكسب من اللغة الواسع الإطلاع .. وباختصار أن الشاعر الذي حباه الله بملكتي الوحي والتعبير قادر على أن يواجه القيود الفنية المختلفة .. وهي كثيرة .. أن الوزن والقافية في حد ذاتها قيدان فنيان .. وأن تعدد الشخصيات بحيث أن لكل شخصية تفكيرها وإحساسها وسلوكها قيد فني .. وأن ترتيب حوادث المسرحية أو الملحة ترتيباً منطقياً متعاقباً والوصول بها إلى نهاية مقبلة قيد فني .. بل إن فكرة المسرحية أو الملحة قيد فني .. وأن الدرس الذي يخطط له الكاتب في المسرحية أو الملحة والذي يتعلمه القارئ منها يمكن أن يعتبر أيضاً قيداً فنياً .. إن مهبة الشاعر المبدع أو الكاتب المبدع أن يتحدى مثل هذه القيود الفنية ويواجهها بمواجهه الخروج في النهاية بعمل متكامل بارز قادر على الخلود ..

إن كتابة المسرحية أو الملحة عادة تعتمد على عنصرين أساسيين هما الشخصية والتجربة .. وإنه بقدر ما تحظى به الشخصية من وزن وقدر ما تحظى به تجاربها مع الحياة من أهمية بقدر ما تحظى به المسرحية باهتمام إنساني عام ... ولذلك فإن الكاتب المسرحي ينتقي شخصيات أبطاله ويميزها

ليس "King Lear" ليري القارئ كيف أن شكسبير بفضل ملكتي الوحي والتعبير استطاع أن يخترق الحواجز ليصل إلى أعماق الإنسان حينما يمتحن في آخر حياته بالعقوبات فلذات أكباد .. بناته الثلاث .. فمخلص القصة هي أن الملك لير حينما تقدمت به السن وأصبحت صحته لا تساعد على إدارة مملكته قرر أن ينقل السلطة إلى بناته الثلاث قبل أن يموت ، فلما فعل وانتقلت أسباب القوة إلى بناته الثلاث لاقى التكرار والاهمال والتأمر على أيديهن .. وقد صدم أيها صدمة وبلغ به التأثير حد الهذيان والهلوسة ثم انتهى به الأمر إلى الجنون .. أو شيء قريب من الجنون .. المهم هو متابعة التطور المرحلي في النفس البشرية حينما تواجه نفس الظروف القاسية وانتقل الإنسان من دنيا العقلاء إلى دنيا المجائنين بسبب المحن الشديدة التي يتعرض لها والتي لا يستطيع مقاومتها .. ثم التعبير عن كل ذلك شعراً .. أو شعراً منظوماً .. إن هذا المثل البسيط يعطي الدليل على مدى القدرة التي يتمتع بها الإنسان حينما تتوفّر له ملكة الوحي النافذة بالنفس البشرية والقدرة على تقمص تجاربها مع الحياة ، مضافاً إلى ذلك إيمانه لموهبة التعبير عن هذه التجارب إن شعراً أو نثراً ..

أننا نستطيع أن نتوصل إذن إلى أن تناول الشخصيات المختلفة بالمسرحية أو بالملحة والتعبير عن كوامنها شعراً لا شك يتطلب موهبة خاصة حددناها بملكتي الوحي والتعبير .. ويبدو لي أن كلمة الوحي هذه محتاجة إلى مزيد من التحليل .. أن أولى مراتب الوحي الإحساس .. وكلما كان الإحساس أكثر دقة وأكثر حياداً وبعيداً عن نوازع النفس الخاصة كانت القدرة أعظم على تصور هوائف النفس البشرية وعلى سبر أغوارها وفهم أسرارها .. ومن ثم أقرب إلى الصديق في التعبير عنها .. أن مجرد الإطلاق من عالم الذات إلى عالم الإنسانية الرحب يعطي الشاعر انطلاقاً جديدة ويفتح له أبواباً عن تجارب إنسانية لا حد لها ويعطيه فرصاً أكبر لاستغلال مواهبه واختبار إمكانياته الفنية ..

المهم هو ان هذه الشخصيات البارزة تملك صفات خلقية او فكرية لا تنأى للانسان العادي وتعيش تحت ظروف معينة لا يتعرض لها الانسان العادي وتقوم باعمال بطولية لا يقدر عليها الانسان العادي .. ومن هنا اكتسبت اهميتها واصبحت حياتها جديرة بالتسجيل .

والان عودة الى شاعرنا العسكر .. فقد سبق ان قلنا ان الصفات الغالبة على شعره هي انه ذاتي المنحى ، شخصي التعبير ، انطباعي الحكم .. فهل يعني هذا انه لا يملك موهبتي الوعي والتعبير ؟ .. ان الامثلة التي يمكن الاعتماد عليها في هذا المجال نادرة جدا ولكنها موجودة .. فقد استطاع العسكر في بعض قصائده ان يتحرر من ريق النفس ويطرق باب الانسانية .. وانا هنا اعني تمصيده الممتازة « الجندي في ميدان القتال » .

ودع الازل والهمى والمغاني مندفع شفه هوى الاوطان
ويستكك ان تقرا القصيدة من اولها الى اخرها دون ان تعثر على اذن اشار الى الذات على خلاف ما عهدناه في شعر العسكر .. فالشاعر هنا استطاع ان يتخلص شخصية الجندي وان يتكلم بلسانها ويشعر بشعورها وهي تناضل في ميدان القتال .. ففي هذه القصيدة النادرة يتخلص الشاعر من الحاح مآسيه الخاصة وينسى شكواه ويعيش شخصية غيره ويتمثل بتجربتها الانسانية .. وفي هذه القصيدة يقول :

اي وقع في النفس - صاح - لمرأى
مستغيث يفتال غمي الاكفان
تتراءى غمي عينه صور قد
اخرست عبقريته الفنان

رسمتها بريشة الحزم والعزم يد الحق في ادق معان
واذا ما دعاه قائد الباسل لبى بالروح لا باللسان
يتخطى الصعاب غير مبال بزغم الالات والسران
واتين الجرحى وحشرجة الموتى هناك لا عاش كل جبان
ويزيد الملاح في ثورة اليم نشاطا مهارة الريان .
... الخ .

على غيرها بصفات خلقية معينة او افكار او مثل معينة ثم يهيب لها تجارب ذات طابع انساني مميز ويتصور لنفسه السلوك الذي تسلكه وهي تواجه مثل هذه التجارب الانسانية المهمة وبخلافها وافكارها ومثلها ... فبطل المسرحية اذن هو المحور الذي تدور حوله الحوادث والافكار والتي تتطور وتتصاعد تحت ظروف خاصة الى مواقف انسانية ذات طابع مميز .. حب .. او كره .. او انتقام .. او تضحية .. وغير ذلك من مختلف التجارب الانسانية التي تحتاج الى اتخاذ قرار حاسم من البطل وتحمل النتائج المترتبة عليه ان خيرا وان شرا ...

ان الحاصل هو ان ظروف الانسان الحياتية ليست على قدر من الاهمية جدير باستئثار اهتمام الانسان والتأثير على احساسه ، فان اغلبها متشابه وروتيني .. وان كاتب المسرحية حينما يدمج في مسرحيته نماذج من الشخصيات العادية مما لا يقصدها لذاتها وانما يستغلها لملء الفراغات خدمة للفكرة الرئيسية التي تبني حولها حوادث المسرحية والمركزة عادة في بطل المسرحية .. ولذلك فانا يجب ان لا نخلط بين شعر المسرحيات وشعر الملاحم وبين شعر المناسبات .. فالامر مختلف كل الاختلاف .. فالشاعر في شعر المناسبات كثيرا ما يلجأ الى المجاملة في الاشارة الى مناقب من يتعرض له وفضائله .. وهو في كثير من الاحيان يكون مدفوعا بمطلته الخاصة بسبب علاقته الوثيقة بهذا الشخص او تأثره به .. ولذلك فان من الصعب تحت هذه الظروف المحافظة على هذا الصدق في التعبير .. فالانسان في شعر المناسبات كثيرا ما يهضم عيبيه - تلقائيا - عن نقائص من يتحدث عنه في شعره .. وقد يكون في اعماقه مقرا بذلك ولكنه لا يريد التصريح به .. اما الامر في شعر المسرحيات والملاحم فان الشاعر متحرر من هذا القيد الخلفي المتعلق بالمبدأ او الضمير او الصدق ..

ان اغلب المسرحيات والملاحم الناجحة تتعرض لشخصيات ابطال المسرحية او الملحمة باكبر قدر من الصدق مشيرة الى فضائلها غير غافلة عن نقائصها ..

وفي هذا المجال يمكن الإشارة إلى قصيدة أخرى للشاعر العسكري - البلبل - .. فقد حاول شاعرنا هنا أيضا أن يتجسم شخصية البلبل ويتخيل تجربته ويعبر عنها .. ولكنه في هذه المرة لم يستطع أن يتخلص كلياً من هواجسه الذاتية .. فقد استغل البلبل في بعض المواضع للتعبير عن كوامنه الخاصة وأحزانه الشخصية .. ذلك لأن في تجربتي الشاعر والبلبل - حسب تصوره - مطابقة وتشابه .. فهما يشتركان في الحزن والأسى .. والأحلام .. ولعل العسكري اختار البلبل لهذه الغاية .. وقصيدته هذه تذكرنا بقصيدة أبو فراس الحمداني وهو يناجي الحماة من وراء قضبان السجن « أقول وقد ناحت بقربي حماة .. الخ » ..
غنى قصيدة البلبل عندما يقول العسكري :

نظل من قوة الماضي عليه وقد
يرنو إليها كما يرنو الرضى وما
نفسه نواحا كالنسيم رأى
وإن قسا راحت الأعلام مائة
ونكم ترائعت له من نعلها صور
نيسنق فلا الإنسان بورقة
نيسب اللعن انت يفس بها

اشجاء حاضرة الطيف ماضيه
ابل بعد الى هني مدابيه
ندى نضاح وابن الذي من فيه
به فتنبيه احيقا وتقصيه
بختال فيها الربيع البكر في تبه
كلا ولا المسار الشادي يناجيه
وبسح الشاء فما اقسى ليليه

فانه يشير من طرف خفي إلى هوائيه الخاصة واشجائه الذاتية .. فكان حياة البلبل هي حياة الشاعر وكان حياة الشاعر هي حياة البلبل .. فالشاعر إذن استغل هذا التشابه للتعبير عن محنه وآلامه .. فهو عندما يقول :

لا الروى زاه ولا الكام باسمة ولا هرائه سكرى نظمه
فاته يعبر عن حاله وعن نظرته إلى الحياة الملونة بتساومه وبأسه .. ولكنها - على كل حال - محاولة جيدة تستدعي التأمل .. ولو أن العسكري وعى هذا الاتجاه الفني المهم والتفت إليه وبذل محاولات فيه مستغلا هواجسه الشعرية المتعددة لتوفرت لدينا اليوم اشعار أخرى لا يسبدها التواضع ولا تسيطر عليها هذه الروح الانهزامية التي لا تتدر على مواجهة الحياة وتحمل مسؤولياتها ...

* ليجت صلة *

ولست ادعي هنا أن قصيدته هذه أحسن من قصائده الأخرى صورا شعرية وإبداعا تعبيريا وتحليق خيال ، ولكن المهم فيها أنها تعطي الدليل على أن العسكري عنده ملكتا الوعي والتعبير ، فيلاحظ أنه نسي نفسه ومحنه ونواحه ولو لحظة من الزمان يعبر عن خلق الجندي الشاعر العسكري لم يحاول أن يستغل ملكة الوعي في شعره .. بل يمكن القول أنه لم يكن يدرك أن في حوزته هذه الملكة الفنية .. وفي اعتقادي أنه لو أدرك ذلك وحاول صقلها ونهيتها إذن لاستطاع أن يطرق في شعره مواضيع إنسانية أخرى تزيد شعره غنى وخصبا ، وتزيد تجربته للحياة فهما ومعا .. ولكن يبدو أن هوم العسكري ملحة ودائمة إضافة إلى أنها زمزمة أيضا .. وهذا لم يمكنه من أن يشغل ذهنه ويكرس مواهبه في محاولات خارج نطاق محنه وأوصابه .. حتى أصبح اليأس والشكوى علامة مميزة لفكره وجزءا لا يتجزأ من تجربته اليومية وسلوكه العام بحيث يصعب عليه أن يسهر عنها أو يسلوها .. غنى كالمريض المزمن المألزم الذي يزيد من استشرائه غياب الدواء وعدم توفر المناخ البيئي النقي والجو الصحي اللازم للعلاج ..

أحب أن استنتج من كل ما ذكرته أن الشعر الصادق يمكن أن يعبر عن تجربة إنسانية خارج نطاق تجربة الشاعر الذاتية ، وذلك إذا ما امتلك الشاعر ناصية الوعي بإحاسيس الإنسان بشكل عام وتصور تجاربه وعاش حياته بكل ما تشتمل عليه من أفراح وأتراح .. ويتبين أنها لو قدر للعسكري أن ينشأ في بيئة أدبية أخرى فيها نشاط فكري واسع وفرص للتعبير أكبر لكان له شأن آخر ووزن أدبي مهم يخرج من نطاق بيئته المحدودة ليدخل في البيئة الإنسانية الكبرى . ذلك لأنه يمتلك ألوانا الفنية الضرورية لبروزه وهي : خصب الخيال ، توفد العاطفة ، تيقظ القرينة ، غنى الصور الشعرية ، القدرة اللغوية على التعبير ، شفافية النفس ، وقبل كل شيء ملكة الوعي بتجارب الغير .. وهي الملكة التي أهملت كثيرا في شعره ولم تستغل إمكاناتها كما ينبغي ..



صوت المسافر للنار

وأنا المسافر في عيون المستحيل
الهم أرقني .. وأتعبني الرحيل
والحارس الليلي يعرفني
وتعرفني دروب الجائعين
سافرت في وجه اليتامى ، كان جوعي .. جوعهم ...
كانت جراحي ومض نجم في ليالي الفاشمين

صوتي دم .. ورائق
تمتد للآتين من جوف الصحارى المتعبين
تعتد عبر حدائق الليمون .. تزدهم الدروب بها
وتكبر .. تكبر الخطوات .. تختصر المسافات البعيدة
صوتي هو الرعد الذي ما زال أغنية
على شفة الزنابق .. كان ينتظر الغناء
ودمي ... هو الثمن الذي — ان عز —
يوما .. يشتهيهِ الغاصبون
وجهي ...

يطوف .. أضاعني وطني
بحثت عن الطفولة
في عيون العابرين
وطمني

ووجهي

ضائمان
متى ... وكيف ... سنلتقي ؟؟

لما أضاعوني .. أضاعوا وجههم
حتى ضفاف البحر ضاعت .. والأغاني .. والزمان ..
كان الغرام الطور راقصة .. وخمرا .. كان وشوشة
وكان .. حلم .. رواء عاشقان
كنت المباح لهم ...
دمي ..
وطمني ..

وأمي .. والصبايا الآخرون
كانت سياط الفاتحين
سنا بلا ... تخضر في جسدي
وتورق نرجس ..
وضفائرا
خضراء في لون الفصون ...
فلتشربوا

مائي فمن مائي
سيزهر الف حقل
من حقول الياسمين ؟

انتشق البارود والنار التي
تمتد خلف خنادق الثوار .. يحرقني لهيب أوارها
فأموت .. منتصبا ... واشرب من دمي
توجت بالورد المدمى .. جبته
وغرست في رئة النهار ملاحي
دربي هو الشوك المطرز خطوتي

الرقابة

والرقيب

بمعلم
عبد العزيز
جادو

هذه الكتب يا بني للكبار فقط وليست للصغار الذين في منكب فلا تقربها ولا تشغل بها مخك حتى تكبر .. حينئذ يمكنك أن تستمتع بقراءتها ؟

أنا شخصيا قد اجتزت هذه الاشياء ، واعتقد انك ايضا قد اجتزتها بل لقد اجتازها الجميع بلا استثناء .. واني اعرف صديقا اعتاد ان يستعير الكتب من المكتبات العامة ليقتصد ثمن شرائها ، ولكنه مع ذلك ، كلما سمع ان هناك كتابا صودر وان المسؤولين اوقفوا توزيعه ، لا يني عن السعي في الحصول على نسخة منه حتى ولو كلفته اضعاف ثمنها . وهكذا ترى ان « كل ممنوع مرغوب » وان « المرء توافي الى ما لم يئل » ،

والعالم اليوم اشبه شيء بذلك ونحن اذا ما اعطينا كل التفاح الذي نريده ونشتهيهِ فستعافيه نفوسنا ولن نلتفت اليه ولن نهتم به . اها اذا امرنا بالابتعاد عنه وعدم لمسهِ ، فهذا شيء لا يطلق ، ولا يمكن مقاومته بآية حال ولا بد اذن من تخطي العقبات ، وقتل بعد ذلك على التفاح المعاف .

هل يمكنك ان تستعيد الى ذاكرتك كيف كان شعورك وانت طفل ، عندما كنت تؤمر بعدم الاقتراب من الحلوى التي في دولايب الكرار ؟ .. هل تذكر ذلك الدولايب الذي كان يحكم غلقه بالضربة والمنفاح ؟ وكيف كنت تترقب الفرص لكي تخلس نظرة تستشف بها ما بداخله ؟ .. ثم رف الكتب ! .. انذكر عندما قال لك ابيوك : « ان

الرقابة في الواقع قديمة قدم الانسان ، وقد رمزت لها الكتب السماوية بقصة التفاحة في جنة عدن .

لقد كانت الرقابة مفروضة يومئذ على التفاحة . وما كانت حواء تميل الى التفاح على وجه الخصوص وما كان التفاح ليجتذبها شكله ولا طعمه ، فكم كان لديها من اشياء الذوا ومنع . وكم كان لديها من صنوف مما لم تره عين ولم تسمع به اذن وكان كل هذا كخيلا باعماها عن مجرد التفكير في التحقق او التأكد من طعم التفاحة ماذا يكون . وربما لم يخطر لها هذا التفكير على بال الا حينما قيل لها ان التفاحة انما هي فاكهة محرمة ، اذن ، فلن يقرر قراها ، ولن يهدا بالها حتى تقضمها لتفتوقها ، وليكن ما يكون ..

وان « أحب شيء الى الانسان ما منعا » .

هذا هو عمل الرقابة ، وهذا هو اثرها وتأثيرها ! .. فهي تصدد للشخص ما يجب وما لا يجب . وتفرض عليه ما ينبغي وما لا ينبغي . والانسان بطبيعته يريد ان يأخذ اكثر من حقه .. انه لا يريد ان يحصل على اكثر مما هو موجود في الدنيا محسب ، ولكنه يريد ان يحصل ايضا على ما ليس له وجود في الدنيا .

ثم ان هناك مقاييس ادبية وخلقية ضرورية ولا شك .. فلا يمكن لأي جمعية او جماعة ان تعيش وان تستمر في تادية رسالتها بدون هذه المقاييس . هذه المقاييس هي التي تجعلنا نقف سدا متبعا ضد كل ما يخالف العرف وكل ما هو خارج عن المألوف . فالت بـكل بساطة لا يمكن ان تسمح بأي حال لتنجي الاعلام ان يعملوا ما يحلو لهم ، والا فسترى عجايا عجب ولا يمكن ان تترك لناشري الكتب ولا لعارضي اللوحات الزيتية ولا لخارجي المسرحيات مطلق الحرية لعل ما يحلو لهم .. ولئن فعلت فستبادى بعضهم بـكل تأكيد في استغلال هذه الحرية فيما يشين بتخطي السدود والذهاب الى أبعد الحدود ، مما تحر له الوجود .

ولا يزال هناك — للأسف الشديد — بعض اناس لا يتأخرون عن تقديم أو نشر أشياء يحوطها الغموض ، وتثير الشكوك . ولا يتورعون عن ابداء امور ليس من الذوق ابدؤها . ولا يستحسنون من التبادي في وصف المبالل على طريقة الادب المكتشف . ويستبيحون لانفسهم الخوض في مسائل لا يستحب

الخوض فيها ، ولا سيما اذا كانت بالطريقة الزرية التي يسلكونها .

والرقابة انما تهتم على وجه الخصوص باخلاقا الشخصية وأدائنا ولا سيما في المسائل التي لها صلة بالجنس . فاذا لم نراع الذوق والاحتشام فيما نكتب ولو كان عن طريق المجاز والاستعارة ، فالرقابة هنا لا بد ان تصدنا ، ولها الحق في ان تصفنا على وجوهنا مراعية في ذلك العدل والانصاف .

والناس جميعا سواء ، اكانوا نكورا ام انا ، عندهم الفرائز الهيجية غير المستنسة . وانهم ليعتدون على تلك الميول الموروثة التي انتقلت من السلف الى الخلف منذ العصور البدائية . ولما كانت تلك الميول مخالفة للتوانين ، وممنوعة منعا باتا فقد احكم ضبطها وصار من السهل التحكم في امرها حتى اصيبت مشتركة بين الجماعة مشاعة بين الناس . ويمرور الزمن وتغاقب الأجيال ومع التمرين الذي تمرسنا به منذ الطفولة ، تعلمت الاغلبية اخضاع غرائزها الفسادية وكبح جماحها . فالت اليوم اذا اربت شيئا في حوزة صدقك لك فلن يضطرك الامر الى ان تقتل صديقك لكي تنهب او تسلب منه هذا الشيء . فهناك سجون وقضايا حديدية لمثل هذا التصرف . ولقد سنت الهيئات الاجتماعية القوانين والتشريعات ، وفرضت عقابا لأولئك الذين لم يتعلموا كيف يحكمون انفسهم ويتحكمون في تصرفاتهم .

وتتظيم الجنس او تقويمه انما هو من اصعب الامور التي تعالجها الهيئة الاجتماعية والفرد على سواء . والامور التي تتعلق بالجنس تثير الفضول وحسب

الاستطلاع اكثر من أي عامل آخر . ولكننا مع ذلك نشتمز من أي فرد أو أي مجموعة من الافراد اذا لم يراعوا في محادثاتهم عدم المساس بما يخل بالشرف او اذا اتجسوا في احاديثهم الى ما يشين او يخذش الشعور او ما لا يصح ان يقال . ولكم يثر في نفوسنا السخط والاستياء ما نقرأه احيانا لبعض الكتاب من المبالل والمجون مما يندى له الجبين .

وهنا يبرز امامنا سؤال عما اذا كان الذوق الاجتماعي يتطلب منا درجات من الكبت الجنسي حتى في المصنفات الادبية والتثليلات النيرة ، والافلام السينمائية التي قد لا تكون صالحة لمن جيدة . والطب على أي حال ، يدرك تهايا ان الفرد يمكن ان يعاني ارتقا ، او قلقا ، او خوفا ، او جملة من الاعراض العصبية الاخرى بسبب التعبير عن الجنس بطريقة خاطئة او بوسيلة سيئة غير منظمة وغير مجدية . فهل من الخير ان ينطلق هذا البخار الزائد عن طريق مسرحية او كتاب او فيلم ؟ ..

نستطيع ان نقول « نعم » كما نستطيع ايضا ان نقول « لا » .

نقول « نعم » على شريطة ان يكون الانتاج ، بغض النظر عن نوعه ، مصورا بوضوح لمسائل الحياة الحيوية .. يلجا بحق الى الحياة ، ويلتصق بالحياة . وهو لا يكون متنفسا مأمونا ومنفذا امينا للعواطف المكبوتة محسب ، ولكنه يغدو ايضا طماعة ادبية خلقة ..

ونقول « لا » اذا كان هذا الانتاج يشوه الحقائق او يحرفها ، ويكذب على الحياة وعلى الطبيعة ، ويتقدم

ما يخالف الواقع فتكون النتائج
متناقضة ، البية ، والمواقف
خبيثة .

وليس هناك من أدته الدعوة الى
لحق أو إساءة اليه إفساء الحقيقة ،
شرط أن تكون الحقيقة كلها هي
لتي قتلت ولا شيء غيرها ، مما
تنافي مع الذوق واللياقة ، وبمس
لاحساس ويجرح الشعور . لأن
شويه الحقيقة والتحريف التعمد
لنجانها ليس من شأنه إلا خلق هزة
ورجفة تزعج المشاعر . وهذا هو
س السلال وجالب الضرر .

والجهل بالحقائق لم يكن أبدا
أي وقت من الأوقات وأتيا أكيدا
الأخلاق أو دافعا للأذى . ولكن
لمعرفة ، هي الواقية والماتعة للشر
شرط أن تبين بوضوح أن الحطم
التصاح والصنع كلها تؤدي الى
نتائج ناعمة غير مخربة ولا جالبة
لنوايب .

وتركيبة الخلقي بعضه يرجع الى
لوراثة ، وبعضه الآخر الى التكوين
لمبكر . وهذا التكوين بدون شك
أهميته التي يعتد بها . وعلى هذا
العادات الحسنة شأنها كسكان
لعادات السيئة ، كلتاها تكونها
لاخلاق . ولكن اذا لم تكن العادات
حسنة مؤسسة ومبنية على
الاحاطة للحياة صادقة وثابتة فهي
ترسي الا أساسا مزعزا خرعا
سلوك الانساني .

الروايات التحقيقية والسينمائية
الكتب لها طبيعة الحال ، قبيتها
للتحقيقية . فهي تحلل الحياة ، وهي
نرجها ، وهي تغلب أو تستجوب
ي تفلسف أساليب الفكر ومناهج
لعمل التي أسست منذ قديم ،
هي غالبا ما تكون نواة للمستقبل
هي كثيرا ما تنبئ عما هو آت .

وهي لا بد أيضا أن تعالج بشجاعة
وبجرأة وبلا خوف أو وجل مسائل
الجنس بتواعها المتعددة . وهي
بالضرورة تتحدى وتناهض وتدعو
الى التزال والجدال والتقاش فيها
يمكن أن تنبش عنه وتستخرجه
وتعلمه . وقد لا يخلو هذا ، فهي
بعض الأحيان ، من ضرر أو أذى
ولكنها لا أخيرا ودائما ، الحقيقة
التي يجب أن تعرف وترسم وتصور
وترى فهي عظم الحياة ونخاعها ،
وهي لحياتها وسداها .

والزيف أو الانحراف عن طريق
الفن التوقيم ، المستقيم ، ليس من
المحتم أن يجعل هذا الإنتاج فاسدا
أو غثا أو غير أدبي . فقد يكون من
أوضح وأخلص وأرق أنواع التسلية
وأكثرها صراحة . وقد يكون هي
هذا الإنتاج شيء من الفصح
والفائدة . حتى أن المسائل الجنسية
الإبداعية اذا قدمت بعقل واتصاف
فلن يأتي منها ضرر يمول عليه ، وإن
تحدثت منها أي أذى .

ولكن من المؤكد انه سيكون
هناك استمرار ومواظبة على خلق
تجليلات تمس الذوق والشعور .
كما سيكون هناك أيضا بعض
الاعلام وبعض الكتب التي تقوم بهذه
المحاولة . أما أولئك الذين يذهبون
الى أبعد الحدود فيها يكتبون أو فيما
يعرضون ، فيستترون في السر
في طريقهم الى محاولة انتهاز فرصة
تحسين المكوث ، وتشوقنا المكثوم ،
وانحرافنا الزائد . أو بمعنى آخر
انهم يستفيدون من ضعفنا . وكلما
كانت عندهم القدرة على تلوين هذا
الضعف عن طريق إثارة المواطنين
وتحريك الإحساس ، كانت
الفائدة أكثر لاء جيوبهم وزيادة
رصيدهم .

ومن الطريف أن أحد الدوافع
القوية التي تنطلكها ، تلهمنا بل
وتستثيرنا للكشف عن كل ما يمكننا
الكشف عنه ، فالجهول يروعنا ويهز
مشارعنا . والإمكانات تودد الخيال
وتكتب اللهو والتسلية انما هي
كالولائم المغرية تجتذبنا اليها
كالمنغيطس . وهذه الاعمال ، كيفما
تكون ، لابد من الأخلاص ، مخلفة
للظنون . فاولئك الذين يشاهدون
هذه الاعمال ان كانت من المراثيات ،
والذين يقرأونها ان كانت من المؤلفات
لا يلبثون ان يضيقوا بها ذرعا
ويزهدون فيها بل ويضجرون منها .

وأسرع طريقة يمكن أن تتعلم بها
كيفية القبض على زمام الدوافع
والخبرات السقيمة بالكبح والقمع هي
أن نلم بكل هذه الاعمال وتكون على
علم ودراية بالكتب التي لا يعرف
مؤلفوها شيئا عن الذوق السليم .

ومهما يكن من شيء ، فقد تعلم
الناس ، رجالا ونساء ، كيف
يشيطون مشتهياتهم المرضية . فلقد
علمتهم تجارب الحياة أن ليس هناك
ما يمكن الحصول عليه من الاذعان
أو الاستسلام الى الدوافع الحقيرة
الذنية الا الشعور بالهوان ، وإهدار
القيم الانسانية ، وتلويث السمعة .

ولقد أصبحت الكتابات الجنسية
من الأشياء المبتذلة التي تعافها
النفس ، ويهجا الذوق . وباتت
من الأمور التي لا يرضى بها أحد
قط ، ومن الأشياء الكريهة التي
يشمئز منها الذوق . وهنا يمتعضنا
سؤال عن الذوق مرة أخرى ..

لقد خلقنا ، لسوء الحظ ، انما
وانت كيمنا نقاسي وننال ونتمسك
بسبب قصور محقق ، فعلا ، لم
يكتمل نضجه بعد ، ولم يتم نموه

والرقى الادبي .

والذوق بالاختصار ، أحد الدوافع الثقافية العقلية التي يمكن اقتناؤها .

ومسألة خلق الذوق ، أو تكوينه تتطلب بطبيعة الحال ، التمكن منه في سن مبكرة من الطفولة . ونسأل بعد ذلك عن القدر الذي نكبح به الطفل ونقمعه كم يكون ، وإلى أي مدى نتركه يروح عن نفسه بطريقة البدائية . وإلى أي حد نترك لنزواته الفطرية ، فهذه قضية معقدة ومسألة من الصعب حلها ، ولا يمكن الاتفاق بشأنها أو الوصول إلى تسوية مقبولة أو قرار حاسم فيها . يكون فيه فصل الخلاف .

نعم .. إلى أي درجة ، يجب أن نلقن الطفل ونعلمه كيف يكون على نفسه رقيقا ؟ ..

إن أطباء الأمراض العصبية وأطباء الأمراض العقلية معا يعرفون تماما ما هي الآفات والسيئات التي يمكن أن تتدفق من الرقابة الذاتية التي تزيد عن الحد المألوف . ومن المؤكد أن شعورنا بالانتماء والخطيئة واعتقادنا بالدونية ، واحساسنا بالدناءة والانحطاط ، والتأنيب الذاتي وغير ذلك من الأمراض العصبية إنما تتدفق كلها من هذا المنبع العام

أما أننا نكبت لأننا نخاف من مواجهة الحقائق أو الظروف فهذه أحد الأمور .



ستتكون ، على الأكثر ، حسب سيكولوجيتهم الفردية . فمن الواضح جدا ، أن نمصرف كيف أن رجلا في لجنة الرقابة يمكن أن يتأثر مثلا ، من قصة عن امرأة أدمنت على الشراب ، إذا حدث وكانت امراته أو إحدى قريباته تعاني نفس الحالة .

ونحن إذا تأملنا جيدا ودققنا باهتمام في مسألة الرقابة من جميع الزوايا فنستصل حتما إلى النتيجة بأنها ضارة ومؤذية . ماذا إذن ؟

إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يساعدنا على تقديم الاحترام والتبجيل للذوق السليم هو الارتقاء بالرأي العام الذي يرضى باحتضانها ويميل إلى معاونتها والتكفل بها . ولكن كيف نستطيع أن نخلق أو تكون هذا الرأي العام ؟

وهنا ، دون شك ، يبرز سؤال فرد من الأفراد : أننا إذا لم نراقب أنفسنا ، وإذا لم يردع معظمنا الميول المهيمنة التي تحاول دائما أن تحقق نفسها وتثبت وجودها في كل رجل وامرأة وكل طفل ، لكان التحصيل الاشتراكي كتحسين سلامة الذوق في الأغلبية ، هراء في هراء أو صرخة في فلاة ..

والنقطة ، مع ذلك ، هي أنها في الواقع تدفع الفرد بالرغم عنه إلى تحسين حاسة الذوق عنده . حتى يقل احتمال حدوث شيء ضار . كان يدوس على أصابع أقدام جيرانه أو أن ينتهك حرمة زملائه ، أو يعتدي على حقوق الغير . والذوق يجعل الشخص مقبولا لدى الآخرين ، مرضيا عنه كما أنه يؤدي إلى التعاون والتأزر في مساعدة البعض للبعض من أجل الإصلاح الاجتماعي

وقد يقول قائل إن التصور الشائع والمبتذل يجبر على طاعة الأغلبية المؤبدة ذات العفة والحشمة . وهذا حق فعلا ، من جهة معظم القوانين في كتب الشريعة . ولو لم يكن ثمة لصوص لما اضطروا لائتمان لتحميل رجال الشرطة مشقة المراقبة والهيمنة . ولو لم يوجد جنون السرعة ما كان هناك من حاجة إلى قوانين تحد من سرعة السيارات لكذا كيلو متر في الساعة . وما كان هناك أي احتياج لما يسمى « قلم مرور » ولا لجندي الشرطة في قسم المرور ، يفتح المرور ويفلقه ويقيّد مخالفات لمن يخصون توجيهه ولولا وجود أناس اتخذوا من الرقيق الأبيض تجارة لهم ، ومن البغضاء مكتسبا لهم ، لما كانت الرقابة من المسائل الضرورية ، وعلى صورة مشددة ، فنحن لا يزال فينا الفاسد والفاجر ، ولا يزال فينا أناس ليسوا على شيء من الأدب أو الحياء ، بالرغم من التصانيع والتعاليم الدينية والتوجيهات التي يبثها رجال الإصلاح ولكننا حتما مراهقون وكالأطفال ، نشتهي كل ممنوع ، ونتوق كثيرا إلى أن نغفل ما قررت اللوائح القانونية والنظم الشرعية الزامنا بعدم فعله .

وحينا يقال كل شيء ، ويعمل كل شيء ، يتأثر أناس متفاوتون تأثرا متفاوتا بمؤثرات معينة . وبمعنى آخر ، يمكن أن تعتبر إحدى القصص عند البعض خليعة فاسدة ، وعند البعض أدبية ، وعند البعض الآخر موجهة ، وهادئة .

إذا لا يمكن أن يكون ثمة فرد أو مجموعة أفراد يجتمعون للحكم على أية مسرحية أو أي كتاب ويحكمون في حكمهم متساوين أو متصفين عدول . لأن مفكرتهم

الرقابة

والرقيب

اي اذى او يمسه اي سوء اذا هو
ردع نفسه وكبحها عن علم ودراية ،
وبحكمة وفطنة وادراك . فلا يعاني
من الذاتية المكبوتة ، ولا يقع تحت
صراع نفسي يعجز « الانا » عن
مواجهته فيتجاهله ، فيلوذ بأعماق
اللاشعور . فهو حينئذ يوقف سيارته
عند كل اشارة حمراء ، حتى ولو
كان القائم بتنفيذ القانون ليس
موجودا .

نعم ، ليكن عندنا ذوق .. ولنكن

واما اننا نكتب ، من جهة اخرى
عن علم ومعرفة وبوعي وشعور
وبفهم كامل باننا لسنا متبوعين
او مكروهين - واننا بكلمة اخرى
نكتب للخير العام وللمصلحة
الاجتماعية - فهذا شيء آخر ! ..
والجهل والخوف ، مضافا اليهما
الخجل والحياء ، ممزوجين بالقمع
مع الرقابة الذاتية ، كل ذلك يبعث
الضرر والاذى .

ولكن ليس ثمة اي انسان يناله



وقوالى

النفخ حتى تطاير الشرر ،
وتراكت سحب الدخان الداكنة معيقة
الجور برائحة خائفة دمعت منها
العيون ، وزكت الأنوف ، وعطست
الحلوق . حتى وهجت النار ،
وأخرجت ألسنتها الصفراء من بين
شفاه غليظة حمراء مختلطة ببقايا فحم
أسود ... ففرس في جوفها حديدية
صلبة صلبة ، فازداد الدخان سواداً ،
وملأ المكان برائحة لا تكاد تحتمل .
سرت النيران فيها مزيلة عنها

السكينة

بقلم: ابوالقاسم رشوان

وإذا لم نفعل ذلك فستكون دنيانا أكثر فوضى ، يضرب في أطنابها الاضطراب . كما يجب ألا يقف أحدنا في وجه الآخر ، ولا يصده عن سواء السبيل .

عبد العزيز جادو — الاسكندرية



للمصادات . ويكون لنا ميزات وخاصيات نكتشفها في ذواتنا لننتفع بها ، (وكل امرئ رهن بما يؤدي) وفي هذه الحالة يغدو الشخص أكثر قبولاً . وهذا هو الطريق الذي يجب أن ينتهي إليه .

ونحن في الواقع لا يمكن أن نعمل غير ذلك . ويجب أن نكبح جماح أنفسنا ، ونكون رقباء عليها بأية كيفية وبأي حال من الأحوال .

نوي حسامية بالنسبة لهذا الواجب من الرقابة .. ولنعمل بما قال ولیم جیمس العالم النفسى الشهير : « لنكن عمليين » ، وهو انما يقصد بهذا ان ننتمي الى المذهب العملي ، مذهب الذرائع ، المذهب القتال بان اهمية المباديء في نتائجها العملية .

ولكى نكون عمليين في هذه الحاسة ، علينا ان نتخذ قاعدة للسلوك . ونربي في أنفسنا نظاما

وكانها لم تكن يوما من صنع أجداده .
راح يستمرئ النعم ، حتى لان جلده ، ونعمت أظفاره ، وفاحت رائحة المرق واشتمتها ثعابين الأرض ، فجاءت زاحفة من كل جحر ، تهاجم النساء وتأكل الأطفال ، شهر سكينه في وجهها وانبرى لها بمزقها .
تكاثر الثعابين ، وتكرست في رؤوسها السكاكين ، حتى إذا لم يعد في جعبته غير واحدة ، وبقيت حية خبيثة تراوغ ، يث بابه إلى التجار ، فأوصدوا في وجه الفئى أويابهم ، فراح الصبي يطرق الأبواب ، يتعلق بالمقايس ، يلحق الاعتاب يصرخ : أين السكين ؟ أين السكين ؟

وضاعت الصرخات في كل واد .
وعاد إلى أبيه ، فوجد السكين قد قل حداه ، وكسر فصلها ، وبقي رأس الأفعى يتلطمز .

ألقى بما في جيبه .. وأحكم زمزمه ... وراح يطرق السكين .

أبو القاسم رشوان

حتى رقت ولمعت ، وحدثت فرق لها قلب جلادها ، وسقاها ماها ، فراحت ترشف في صوت مسموع حتى غلبها النوم فكفت عن الحراك . تركها برهة ريثما هدأت حرارتها ثم أودع فيها مقيضها ، وملأها البيوت ، فأمن الناس بها وأطمانوا .
وجملت عيون زرق ، وعيون صفر ، واشرايت أعناق طول ، وأخرى قصار عليها جماجم غلاظ ، وراحت ترقب الصانع الماهر ، وهو يعود صناعته في إتقان ، حتى إذا ملئت العيون منها ، واهتزت الرؤوس لها ، عادت إلى أوكارها تقلد الطاووس الغربان ، ... عجزت عن مجاراته ، وأدركت أنه سبقها بأزمان ، فكرت في تنف ريشه ، وتركه عرباناً أو يرش مستعار ، ففجرت من تحت أخمصه زمزماً تلقى بالدرهم والدينار ، وباعت له سكينها بشمن زهيد ، فتناوله من غير فهم ولا دكان .. وألقى بعلة الحداد ، معجبا بالسكين ،

ما تراكم عليها من عوادي الزمن ، مبدلة إياها جلداً آخر وثوباً جديداً ...
واشتد عليها التافخ حتى بلغت من الحمرة ما بلغت ، وأخذت من التوهج تميل إلى الاصفرار ، ثم ثنت عطفها من الألم مشعرة أن قد نضجت جلودها ... فأخرجها من سجنها قابضا عليها سجانها ، ممسكا بها وأوسدها سندبانا له في رقق وحنان ، كأنه أم رعوم تمهد طفلها ... وانبرى يدغدغ أطرافها بمطرقته ، وتوالت المداعبة واشتدت ، حتى استحالت طرقا شديداً فراح يفتت أم رأسها ، ورأس أمها بكل ما أوتي من عزم وإصرار .. انتفضت أوداجه ، وبرزت عروقه ، وتجمعت حبات من العرق على جبينه ، وتساقطت على الحديدية محدثة صوتاً آخر ، وضاع صوت أنينها وسط الزحام . وصارت الحديدية عجينة ، فأخذت موسيقى الطرق تنمينا آخر ، وقلبت السكينة ودلكت من كلا جانبيها ، وصفت

بمناسبة
مرور
خمسين
عامًا
على
وفاته



<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ريسون راديغيه

ريسون راديغيه

RAYMOND RADIGUET

الطفل الأعجوبة في القصة الفرنسية

الموهوب ، مؤلف « الشيطان ذو الجسد » ، وهي القصة التي كانت شهاباً من رينبو (1) في سماء أدب ما بعد الحرب العالمية الأولى .

نبوة عجيبة

في المنزل رقم ١١ بشارع شانو بريان بباريس جلست

كتب هو نفسه :
« رجل غوضي في تصرفاته مقبل على الموت ، وهو ما لا يشك فيه ، بدأ يرتب كل شيء حوله » . وقد أقدم ريمون راديغيه فعلاً على وضع كل شيء في مكانه بينما كان يصحح تجارب قصته الثانية خلال صيف ١٩٢٢ ثم مات قبل أن ينتهي العام . وبذلك اختفى ذلك الشاب

جماعة صغيرة من هواة الاتصال بالارواح تدعى المائدة .
والخمسود هو مائدة مستديرة صغيرة تتخذ
وسيلة للاتصال بالارواح .

كان ذلك في منزل جان هوجو ، حفيد الشاعر
المعروف فيكتور هوجو ، وكان الوقت الحادية عشرة
من مساء ٣٠ ابريل ١٩٢٣ . وكان المجتمعون لا يزالون
شبابا ثم اصبح اكثرهم من الشاهير . كان من بينهم
جان كوكو ، ومؤلف الموسيقى جورج اوريك ، وجان
هوجو وزوجته فالتين . وعلى مقربة من هؤلاء جلس
شاب منفردا ينصت الى الاجوبة في هدوء . وكان هذا
ريون راديفيه .

وسال كوكو واوريك مستعلمين من الروح المتصل،
مجات هذه الاجابة الغريبة :

— انني القدر ، وانا وحدي الذي يستطيع ان يفحك
من امورك ، اما انتم فلا سمعكم الا ان تبكوا .

لم تكن هذه اول جلسة ، فقد عقد المجتمعون جلسة
قبل ايام مجاثمهم هذه الاجابة التي لا تفل شرابة :

— انني الموت ، وقد جئت لاختطف شبابا !

بعد ثمانية اشهر مات اصغر شاب بين اولئك الذين

حضروا تلك الجلسات التاريخية : ريون راديفيه ، مؤلف

قصة « الشيطان ذو الجسد » ، وقد سجلت في ١٢
ديسمبر ١٩٢٣ عمر تجاوز عشرين عاما .

وقد قصت فالتين هوجو في تفصيل ما حدث فهي
تلك الليلة المفعمة . وكانت قد جزعت حينما رأت
الحزن يستولي على الحاضرين بعد ان سمعوا النبأ
المؤلم . فاسرمت بوقت الجلسة واخذت تؤكد لهم ان
ما سمعوه غير صحيح ، لانها تلاعبت في حركة المائدة
وقت مجيء الاجابة . ولكنها قالت بعد ذلك بوقت
طويل :

« لقد سارحت جان هوجو بعد سنوات بان ما حدث
في تلك الليلة جسد الدم في عروتي فلم يسميني الا ان
اتهم نفسي بالفن ، مع انني لم اقم بأي تلاعب » .

اذن لم تكن المائدة كاذبة حينما اثبت بان راديفيه
مقبل على الموت (٢) . والواقع ان القصصى الشاب
كان يشعر بدنو اجله ، فقد حدث ان ذهب يوما
ومعه الناشر برنار جراسيه الى عمدة سان مور لاتمام
اجراء يتعلق بخدمة العسكرية ، فلما خرجا قدم
لجراسيه لثابا له وهو يقول « احتفظ بهذا فنكاري ! »
وقد كتب ايضا خلال صيف ١٩٢٣ :

« رجل فوضوي في تصرفاته مقبل على الموت ، وهو

لا يشك في ذلك ، بدأ يضع كل شيء في مكانه ، وقد
تغيرت حياته ، فهو ينام مبكرا ويستيقظ مبكرا ويرتب
اوراقه ، وقد نبذ عاداته السيئة فاصبح محسودا ممن
يحيطون به . غير ان الموت الشرس يبدو اكثر ظلمة
من ان يتركه يعيش سعيدا » .

كتب ذلك وهو لا يدري ما يفعل !

لقد كان موت راديفيه حزنا لجميع اصداقه ،
وبالخاص كوكو وماكس جاكوب . ولكنه احزن ايضا
اوريك وكيسيل وحتى بيكاسو . وقد مات بحصى
التيفوئيد التي جاعته عدواها ، بغير شك ، قسرب
بركة اركاشون ، حيث كان يقضي اجازة مع اوريك
وكوكو وآل هوجو . وقت مات وهو مشغول بكتابة
قصته الثانية « رقص الكونت دي اورجيل » .

وتقول ماري — لويز بوسكيه ، صاحبة الصالون
الادبي الذي كانت له شهرة في ذلك الوقت :

« كنت اشترت سيارة غورد صغيرة ، واردت ان
اجريها بالذهاب الى مارسيليا ، ورايت ان اخذ معي
ريون راديفيه . لقد سررتي الفكرة ، ولكنني عدت
انصب من نتائج هذه الرحلة . لقد كنت مبتدئة في القيادة
فماذا لو وقعت معي حادثة ينجم عنها موت ذلك الطفل
المسكين ؟ »

ولم يتدر لتلك الرحلة ان تحدث قط . ففي نفس
المساء دق جرس الطيفون في منزل ماري — لويز ،
وكان المتكلم كوكو ، فعلمت منه ان راديفيه نقل على
عجل الى مستشفى بيتشيني لاصابته بالتيفوئيد ، ولم

بقسم : اندريه كالايب

ترجمة : لطيف م. دهاطي

تمت ٨ ساعة حتى غاضت روحه .

وقد قصت فالتين هوجو هي ايضا نبأ ذلك الموت
الذي جاء كالصاعقة :

« كان راديفيه يصحح تجارب « رقص الكونت دي
اورجيل » بينما كان يترقب في بيكاي . وفي نهاية
الاجازة راقتا هو وكوكو حتى يوردو . وفي مساء

راديفيه ناثر استطلاع أن يكتب « الشيطان ذو الجسد » وهو لا يزال في السليسية عشرة ، فجاءت من أروع ما كتب في القصص الفرنسي . فهي نوع من الأدب يعتمد بصورة عامة على تجربة طويلة في الحياة ومعرفة واسعة بخفايا القلوب . وقد تكلم هو نفسه عنها في شيء من الشرح :

« انها موضع عام ، وهي نتيجة لذلك حقيقة اذا اراد المرء ان يكتبها فيجب أن يكون عاشها . وانما السذي اود ان اعرفه : في اي سن يحق للانسان ان يقول انني عشت .. افلا يضمّر الماضي الموت ؟ في اعتقادي ان الانسان قد عاش منذ نعومة اظفاره ، وهو يبدأ العيش من جديد في نفس الوقت . ثم يعود فيقول مؤكدا :



كان راديفيه مفرما بارتباد الامكان الغلوبة ، وهو يبدو هنا قرب بركة اركاشون ، حيث بدأ في كتابة قصته الثانية « رقص الكونت دي اورجيل » ، ويبدو بجانبه صديقه جاك دي لاكريل (المسمى بالعمسا) وجان هوجو ثم جان كوكو (الواتف وراه الفشة) .

١٣ سبتمبر ١٩٢٢ قال لنا وداعا الى الإبد .
فبعد شهور قليلة تلت فالتين وهي في موبليه برقية من داربوس ميلهو جاء فيها :
« لقد توفي المسكين راديفيه الصغير هذه الليلة » .
وقد اضافت فالتين :

« لقد توفي ريمون راديفيه وحيدا في الليل ، حوالي الخامسة صباحا . وكان ذلك امرا فاضحا لم يجرؤ احد على التكلم عنه الا همسا . وقد كتب الي صديق انه رأى وجهه حال موته فلم ير مثله بما بدا عليه من علامات اليأس والخيبة والرعب . وحتى لو كان قد حاول بجهده الضعيف ان ينادي احدا فانه لم يكن هناك من يسمع نداه ، لا والداه ولا جان كوكو اخلص اسدقائه » ..

وقد اشتد حزن اسدقائه عندها علموا انه كتب الى فالتين في تلك اللحظات المؤلمة :
« انني احاول الا اموت من اجل امي ، ولكنني اتعذب ، وقد نفدت قواي واصبحت اجد نفسي في فراغ ميت » .
وقد بقي الحزن جاثبا على صدر كوكو حتى بعد مرور اربعين عاما على وفاة صديقه . فقد قال في الخطاب الذي القاه في حفل استقباله بالاكاديمية الفرنسية :

« لقد فقدت بموت ريمون راديفيه صديقا تبنيتيه عن اختيار . غير ان موته تركني شايبا . وقد استلبه الموت مني في العشرين ، ولكننا كنا معا في بكاي ، وكنا نعيش قرب بركة اركاشون ، حيث مضينا ترتب وننسق ، وقد رأيناه يحاول تنظيم كل شيء عشية موته » .

وقد تحملت الضيالة المعروفة كوكو شائيل نفقات الدفن . وقال كوكو بهذا الخصوص « كانت الخدمة تنسم بالروح الدينية وتتميز ببساط ابيض اللون . وهو امر لم يصدمني ، فقد جرى العرف على تمييز الشباب ببساط رحمة ابيض اللون » . وقد تكلمت شائيل هي وميسيا سيرت (٢) بجميع التفاتت فاستحقنا التقدير ، فبفضلها تم كل شيء على أحسن وجه . وهو ما خفف من لوعة الالم ، فقد كان المسكين راديفيه يقول في اخر ساعاته « انني خائف غني بحر يومين سألقى حتفي على أيدي جنود الله » .

لقد اطلق على راديفيه — رينبو الثاني — بسبب نضوجه المبكر . ولكن بينما كان مؤلف « فصل في الجحيم » شاعرا — والشعر ميزة الشباب غالبا — كان

وفيها يجد القارئ كثيرا من غرارة الحياة . ثمن البيع ٣٤٠ فرنك .

موقف الناقد

لقد رأى النقاد في تلك الطرق مهانة كبيرة ، وكان اكثرهم تزمنا المحافظون ، ممن كانوا حتى ذاك الوقت لا يزالون متمسكين بوجوب التزام الرصانة في مجال الادب . وقد كتب الناقد اندريه بيللي :

« لا اريد ان الفت نظر زملائي الى هذه المسألة الخطيرة ، وفي رأيي ان من الواجب ان نقوم بحملة ضد هذا الوباء الذي جد في زمننا ، وهو خلق النجاح والشهرة بطرق صناعية . يمثل هذا الامر مما يحدث في الاسواق المتقلبة حيث يحاول البائع ان يوهم بـ ان سلعته هي الاجود » .

وحتى الناقد لويس اراجون كان حائفا . وقد انتقم من عبقرية راديفيه ، فقد كتب :

« اننا نرى كل يوم قصصا من هذا النوع ، بل وما هو اسوأ من هذه القصة . وقد يتأني لنا ان نرى بعين أكثر عطفنا قصة أخرى لا تحتوي على مثل هذه الادعاءات » .

غير انه كان هناك كتاب اخرون ممن ذوي الاقلام السليمة لم يشغلوا بالهم بأمر تلك الدعاية بل وجهوا انتباههم الى عبقرية راديفيه وأبدوا إعجابهم بطريقته . ومن هؤلاء بول غالييري الذي كتب الى القصصي الشاب مهنا وامتدح القصة قائلا :

« ان ما فيها من جلاء واتجاه مباشر الى الفرض وتصميم ، كل ذلك يعطي الصدق لائل شخصية فسي تصتك . واختصر ، متفنيا لك ان تتمسك دائما بحرية رأيك . فهدء من أهم النقاط » .

أما الناقد الكاثوليكي هنري ماسيس فقصده أغتبط « للتجريح الفجائي في مثل هذا العمل الادبي الذي جاء مستوفيا الكمال » .

القصة تتوج

بجائزة « العالم الجديد »

وفي ١٥ مايو ١٩٢٣ توجت قصة « الشيطان ذو الجسد » بجائزة « العالم الجديد » ، وكانت ثيبتها المادية ٧٠٠٠ فرنك (وهو ما كان يعتبر ثروة في ذلك الوقت) ، وقد انقسم اعضاء لجنة التحكيم بين مؤيدين ومعارضين ، فقد صوت جاك دي لا كرتيل وجان كوككو وماكس جاكوب وبيرنار فاي لراديفيه ،

« هذه قصة حب صغيرة ، ولكنها ليست اعترافا » . من هذا نفهم ان قصة راديفيه قد تكون قصة شخصية كاذبة بدت في اصدق صورة . انها تحكي قصة غرام حدثت اثناء الحرب العالمية الاولى بين مراهق مستهتر وبين مديرة كان زوجها في جبهة القتال . ومع ذلك فيبدو انها قصة حقيقية وقعت مع راديفيه نفسه . اما بطلته « مارت » فقد كان اسمها الحقيقي « اليس » ، وقد عاشت حتى عام ١٩٥٢ . وسنرى الى اي حد تكررت حياتها بظهور الكتاب .

اسباب نجاح القصة

كان نجاح القصة منقطع النظير ، غير ان ذلك لم يكن راجعا فقط الى نضوج الكاتب المبكر ، ولا الى ما ابداه من — عبقرية كلاسيكية — ، ولا الى ظهور الكتاب فور انتهاء الحرب ليقول للناس « ان للحروب وما تجر اليه من مأس » (والقول هنا للكاتب موريس ساكس) ، بل كان هناك عامل آخر قوي هو الذي فرض ذلك النجاح فقد استغل الناشر الشاب ، برنار جراسيه ، كل هذه الاسباب ليقوم للقصة بدعاية عجب لها الناس .

ويقول ساكس الذي كان يتابع هذه الاحداث : « لقد قام جراسيه بدعاية ضخمة لقصة « الشيطان ذو الجسد » ، وكانت المرة الاولى التي استخدمت فيها طرق الاعلان عن الصابون والعقاقير المسهلة للترويج لكتاب . وقد نجحت هذه الطرق ، فبيع الكتاب وأصبح كتابا ناجحا » .

وقد شاهد روجيه مارتان شيئا من تلك الدعاية في دار للسبينا ، فعاد يصف ذلك لاندريه جيد :

« تضمنت نشرة اخبار (جومون) :

١ — اصفر قصاص في فرنسا ، مع صورة لراديفيه ، ثم يد ضخمة تكتب توقيعه على آخر صفحة من قصته .
٢ — استقبال الناشر ، دخول راديفيه ، اصول القصة ، ثم هذا النص : « بناء على قراءة هذه القصة الرائعة ، ودون اي اعتبار آخر ، يقدم الناشر للمؤلف الشاب دخلا طوال حياته » .

٣ — استعراض في احدى المكتبات .

ولم تقل الدعاية في الصحف عن هذه الحماسة ، فقد كانت تتضمن مثل هذه الصيغة :

« الشيطان ذو الجسد ، قصة جد مثيرة من تأليف ريمون راديفيه . انها قصة مذهشة كتبها شاب صغير فنار حولها جدل كثير . انها نجاح لم يسبق له مثيل ،

وعلى العكس فضل بول موران وجان جيرونو وغالييري لاربو قصة فيليب سوبو « الحواري الطيب » .

وكما يحدث دائما ، فإن الأسلوب غير الملتزم لكاتب شاب يسبب الحرج والشك في نفوس المفكرين المنهجين وكان هذا ما أحدثه راديفيه ، فهو لم يكتب بفكر تعاسة شخص حكيت الظروف بأن يترك زوجته لأخر بل المافى في وصف المساعدة التي شعر بها مراهق اتلحت لسه الحرب ان يحترق من كل المشاغل اليومية .

« هؤلاء الأطفال » احرقوا باريس لثمن يريدون الخروج بأسرع ما يجب . وكان ما أربع أوروبا أنهم متحدثون في الال » .

هذا ما كتبه القصصي رولان دور جيليس ، مؤلف « الصليب الخشبي » وحامل لواء المدامين من الحاربين القدماء . فقد ساه - فقدان العاطفة تنابا - كما بدا في قصة راديفيه ، وكتب الى المؤلف نفسه :

« انني لمست بمثل هذه القسوة لاحتمال على الجنود ، فالواقع انني احببتهم كثيرا . وانما كان عجيبي شديدا من اقدامك على كتابة مثل هذه القصة وانت لا تزال في العشرين . وكما احزنني ان تفهم الابور في هذه السن على هذا النحو ! » .

بل ان ماكس جاكوب نفسه ، وهو من أصدقاء راديفيه ، وجه اليه بعض اللوم على قسوته ، فقد كتب اليه :

« تمسك آية في الوضوح ، ما في ذلك شك . وانما أرجو ان تكون القصة القادمة اقل قسوة واكثر عفة ، ان اخذت بذوتي الشخصي . وبعد ان قلت ذلك أحب ان اقول ايضا ان من الامور الخارقة ان يكتب من هو في مثل سنك بأسلوب «لاكوس» (٤) بغير تردد » .

وقد وجهت الاتهامات بعد ذلك الى كوكتو على انه ساعد المؤلف الشاب ، بل وكتب بعض فقرات القصة . ونفى كوكتو دائما ذلك الاتهام ، بل أكد انه هو الذي تأثر بصديقه راديفيه ، فهو الذي « اتجه به نحو المذهب الكلاسيكي وخلصه من المذهب الحديث بما فيه من اختيال » . وانما الذي لا شك فيه ان مؤلف قصة « الأطفال المزعومين » شجع راديفيه على العمل ، وأشار عليه باعادة كتابة بعض فصول القصة ومنها الفصل الأخير .

وقد طلب الناشر نفسه اعادة كتابة هذا الفصل ، وابده كوكتو الذي صارع راديفيه بأنه قد كتب تلقيا . فلما امد المؤلف كتابته وقع له الناشر مقدا يعطيه الحق في الحصول منه على ١٥٠٠ فرنك شهريا .

وكان كوكتو قد سمى من قبل لجعل الاصل بأخذ طريقه الى المطبعة . ويصف الناشر جراسيه ذلك في رسالة بعث بها اليه ، جاء فيها :

« اننا صادقتنا ولدت في مكتبتي يوم ان جلست تقرا على اصول « الشيطان ذو الجسد » بينما جلس راديفيه صامتا ، غدا كتلميذ كبير امام ناظر مدرسته . واعتقد انك لم تنس ، كيف كانت حماسي .. منذ اللحظات الاولى » .

شاعر في الخامسة عشرة !

ثم بدا المراهق الفقير يتذوق حياة الترف . فقد اقسام في فندق - نويو - الذي كان يواجه «السينات» واخذ يستمتع بحياة كلها بذخ . وقد تمتع مؤرخ حياته ، كيث جويش ، مخلصاته في ذلك الفندق وعثر على كثير من الفواتير التي تدل على ما كان يقدمه لصيفوه . فقد كان يقدم لهم الشبانيا ، وكان ثمنها ١٢ فرنكا ، وثمنا اخر من الشرقيات يعرف بـ « شامبرتان ١٨٩٨ » كان ثمنه ٥ فرنكا ، وذلك بجانب لحوم الطير وغيرها من المأكولات الغالية الثمن .

لقد نسي راديفيه طفولته التي نشأت في احضان الفقر ومهاوي الابتذال . فقد ولد في ١٨ يونيو ١٩٠٢ في حي سان مور في ضواحي باريس . وكان والده يشتغل رسام « كاريكاتير » ، ومع انه تزوج في السادسة والثلاثين فقد رزق عشرة اطفال كان راديفيه اكبرهم .

وحينما دخل راديفيه المدرسة العمومية لم يبد شيئا من الذكاء ، وكذلك لم يفعل حينما دخل ثانوية شارلمان . والواقع انه - باستثناء الانشاء - لم يبد ما يدل على انه يتميز بشيء من النبوغ ، بل كانت دراساته كلها سيئة ، وهو ما حمل والده على التفكير في قطعه من المدرسة ووضعه تحت اشرافه .

غير ان الطفل اغرم بالقراءة ، وكان يحلو له ان يطالع وهو متبذد في زورق على شاطئيه المارن او لامارين . وقد تضمنت قصة « الشيطان ذو الجسد » كثيرا من تلك الذكريات . ثم اراد ابوه ان يعلمه شيئا ،

فعمد اليه حمل رسومه الى دور الصحف التي كان مرتبطا بها .

ثم يبلغ ريمون راديفيه الخامسة عشرة ، ويلتقي حينئذ بكاتبت وصحفي هو اندريه سالون ، فيخبره انه « يقرض الشعر ويكتب القصص » ، فيشر هذا اهتمام سالون ، ويسمى به الى زملائه . ثم تظهر اول قصة له في صحيفة - البطلة المقيدة - في ٦ مايو ١٩١٨ ، ويخضع سالون الى صحيفة « لو ريسر » فيمن سكرتير تحرير لها وهو في الخامسة عشرة .

ويتعرف راديفيه في ذلك الوقت الى بليز سيندراواندريه بيلي ، وقد وصفه اسدقاؤه الجدد بأنه خجول متعطر مناذج متحسب ، من ذلك النوع الذي ما ان يجد فرصة للظهور حتى يسعى في فرض سيطرته سواء في العلاقات الاجتماعية او العاطفية او الادبية . وفي تلك السن تعرف الى اليس ، وكانت مدرسة في سان مور تكبره بثلاثة عشر عاما ، وقد استطاع ان يغويها ثم هجرها سريعا ، ليتخذ منها بعد ذلك بطلة لقصته التي جاءت بكل تلك الشهرة .

وفي عام ١٩١٨ التقى بماكسي جاكوب وجسان كوكتو ، فنشأت بينه وبينهما صداقة مقبنة . وقد وصفه كوكتو في ذلك الوقت بقوله :

« نحيب ، باهت اللون ، قصير البصر (احمر) ، يتدلى شعره المشوش حول عنقه فيجمل له عارضتين » . اما بالنسبة لريمون فقد كان ذلك اللقاء منخسة سبابة ، فقد فتح له الطريق ليتغلغل الى عالم تشع منه الانواء ، هو عالم التصوير والموسيقى والشعر . وفي ذلك المجال تعرف الى بيكاسو وموديليانتي وخوان جريس وماري لورنسان وجورج اوريسك وفرانسييس بولنك وايريك ساتي وارثر هونجر وداريوس ميلو . واخذ يتردد على مشرب - الثور فوق السطح - مع كوكتو ، كما قام معه برحلات الى اتجلترا وبركة دي اركاشون ، وقاما معا بالثناء صحيفة ادبية باسم « الديك » ، كما قاما بكتابة ملهاة وضع موسيقاها ايريك ساتي . وكان كوكتو يعجب به كثيرا ، وقد قال :

« لقد تنبأت سريعا ان هذا التلميذ سيمصبح لسي استاذا ، ويعطيني منهاج جديدا » .

وقد بلغ من اعجابه به ان اطلق عليه « اعجوبة المارن » ، ولكن من كان يعلم غيره ان راديفيه سيكتب يوما قصة - الشيطان ذو الجسم - ! لقد بدا يكتسب القصة في ديسمبر ١٩١٩ (وكان حينئذ في السادسة

عشرة) ، ثم انتهى منها في عام ١٩٢١ قرب بركة اركاشون . ومنذ ذلك الحين امتاز تاريخ ريمون راديفيه بتاريخ قصته ، فخرج من ذلك صصور من النجاح ، والفضيحة ، والحياة السهلة ، والمتع الدنيوية .

ماساة بطلة القصة

هذا الكتاب القاسي ، الذي استخرج منه فيلم في عام ١٩٤٧ - بطولة جيرار فيليب وميشلين بريسل - اثار ضجة كبيرة ، جعل من بطلته ضحية في صورة او اخرى . ومع ان راديفيه قال انه كتب « سيرة حياة كاذبة » فان النقاد لم يقتنعوا بذلك ، بل مضوا يلتمسون - الفيلط - الذي يصلون به الى الشخصية الحقيقية في القصة . ولم يعجزوا عن ذلك ، ففي يولييه ١٩٥٢ التي جيلبرت جان بوالدة راديفيه واخته في سان مور ، ثم التقى اخيرا باليس س. نفس المرأة التي اتخذ منها راديفيه نموذجا لبطلة قصته « مارت » .

كانت حينئذ قد تقدمت في السن ، ومع ذلك فقد كانت لا تزال جميلة . غير انها كانت متفجرة بسبب السمعة السيئة التي لحقتها بظهور ذلك الكتاب ، فقد صورت فيه على انها لا غايوة وحسب بل عامرة ! وكان بجانبها زوجها ، ذلك الخرس الذي صور في القصة على انه خطيب مغفل مرغول !

وردت اليس على سؤال جيلبرت جان قائلة : « بل ، انتهي هي . وقد عرفت ريمون بيننا كضمت اعطي دروسا في اللغة الفرنسية لزميل له هو فييس كريبه الذي اصبح صحفيا . وقاطعها زوجها قائلا :

— لقد تكلمت كثيرا في هذه المسالة .

فاستمرت تقول :

— لقد كان راديفيه ذا مخيلة مريضة .

ثم قامت لانهاء الحديث واغلقت الباب في عنف .

ولم تقم اليس بعد ذلك طويلا ، فقد ماتت بعد شهر ، في نوفمبر ١٩٥٢ متأثرة بمرض السرطان ، ولحق بها زوجها بعد وقت قصير . ولكنه ارسل قبيل موته اوراقا سرية الى رولان دور جيليس الذي تولى محاربة قصة - الشيطان ذو الجسم - يؤكد فيها ان راديفيه قد سرق يوميات زوجته . وكان كوكتو قد تسلم جميع اصول القصة ، فحضى يؤكد بسدوره انه لم يكن بينها شيء من اليوميات .

على كل حال ، لقد كانت تلك الصلة سببا في اشاعة الكاذبة في حياة زوجين طوال ثلاثين عاما . وثمة نقطة

رحلة الى بلاد الشالج والضباب

الحشيق في الفناء الشمالية

بقلم: محمود حنفي كساب

لأن فتحي غانم صحفي وليست له شوكة سوى كفاعته
كصحفي تربى في أروقة روز اليوسف فإن نتاجه الأدبي
— رغم أن الصحافة منحت احسان عبد القدوس بريقا
هائلا — لم يربض في وجدان القارئ مثلما تربض
قصص غيره من هؤلاء الذين يلحون دوما بنتائجهم
المتوسط الجودة على أفئدتنا . ولقد حصل فتححي
غانم على شهادة الميلاد الروائية عندما اصدر رباعيته
« الرجل الذي فقد ظله » التي قال عنها الكاتب الروائي
الانجليزي كنجسلي ايمس « ان فكرة رواية في العربية
بدت لي غريبة لأول وهلة ، كما تبدو لمعظمنا نحن
العاملين في حقل الادب ، المقتصرين على التراث
الغربي وحده . ولكن سرعان ما أدركت انني تمجّلت
الحكم ، فهناك قصص وحكايات عربية ذات رونق
وطلاوة كانت تؤلف في الوقت الذي كان فيه اسلامي
او معظمهم يغطون في ظلام الامية . وهكذا تقست الى
الاطلاع على ما سبقوله كاتب مصري في شكل رواية ،
هذا اللون من الادب الذي تضرب جذوره عميقا في
التربة الاوروبية ، وكلي رجاء في ان ينبح لي جهلسي



في الفترة الذهبية من حياة راديفيه قام الرسام بلاتش بعمل صورة
له . وهو يبدو هنا قريب شبه من جان كوكو الذي يبدو رسمه
التخطيطي بجانبه .

مهمة ، ففي سياق القصة تموت — مارت — هامي
تضع طفلا جاءت به من القصاص . فهل كان لراديفيه
حقا ولد من اليس ؟ وهل كان هذا الولد هو نفسه الابن
الاول للزوجين المهرسين ؟ ان المؤرخ كليمنت بورجلال
يؤكد ذلك ، وقد بنى رايه على وجود شبه كبير بين
راديفيه وبين ذلك الابن الذي وجد مهملًا غربي في
مدرسة خيرية ، غير ان كوكو احتج بشدة على هذه
« الخرافة » ، اذ « لو كان راديفيه رزق ولدا ما
توانى في اخبارنا بذلك » .

ثم يبقى السر غامضا . على كل حال ، لفتقولات
من هذه الصلة الغرامية العابرة مأساة مؤلمة في حياة
زوجين ، كما ولدت منها قصة تعتبر من روائع الادب
الفرنسي .

مراجع

- (1) آرثر رينبو Arthur Rinnbaud ، شاعر فرنسي ولد في شارنبل
18٥٤ — 1٨٩١ ، نبغ في وقت جد مبكر ، ففي التاسعة عشرة
اعطى كل انتاجه ، ووقف ناترا ضد جميع التقاليد . وقد
حاول في اشعاره ان يعبر عن الفكرة المخلقة ، وكان له تأثير
كبير على « نرلين » واصحاب مذهب الرمزية . وهو مؤلف
« فصل في الجحيم » بجانب كتب اخرى . (لاروس)
- (2) المادة المقصودة هنا مائدة مستديرة كتبت على داتها العروف
الجهالية ، ننخذ للاتصال بالازواج ، وذلك بوضع كوب في
وسطها تسمى اصابع بعض الجالسين الذين يجب ان يكون
بينهم شخص يتميز بشيء من الوساطة . « المترجم »
- (3) ريشيسيمي ميسيني ، زوجة المصور جوزي ماريا سيرت ، نشرت
مذكرات لها في عام 1٩٥٢ بعنوان « ميسيا » .
- (4) اشارة الى شوندير لوس دي لاكوس ، مؤلف « صلات طيفكة ».



بالادب العربي الحديث الغاء نظرة مستقلة غير متأثرة بشيء » .

وقد وجدت ، بعد مراجعتي لرواية مفتحي غانم هذه ، ما يوري حقا تشوغي وتطلعي ، إذ أنها ممتعة حقا ... فالسيد غانم ، كما يبدو لي كاتب حريص يقظ الضمير وهو بلا ريب قد تصدى لكتابة الرواية بعد طول معاناة لهذا الفن وأغاد من ذلك كثيرا .. واثك لتخرج من الرواية بكثير من المتعة . ففتحي غانم كاتب شديد الملاحظة لا تفوته التفاصيل سواء فيما تقع عليه العين في شوارع المدينة او تلتقطه الاذن من اصوات « مقدمة الكتاب الاول من الرباعية المشار اليها . كتاب الجمهورية العدد ٥ » .

ورواية « الساخن والبارد » التي كتبها مفتحي غانم برغم ذاتيتها المرسعة ، الا انها تدخل في نطاق الانسار الروائية التي تتعرض للحظة اللقاء بين الشرق والغرب ، هذا اللقاء المثير المتجدد دوما ، وهي مغامرة عاطفية لشاب مصري سافر الى السويد في مهمة تجارية .

سافر يوسف منصور الى السويد ، وهو شاب مصري حصل على بكالوريوس التجارة ويعمل في مكتب للاستيراد والتصدير ، وقد اوغته شركته الى السويد ليعقد صفقة لشراء الورق وما ان ينزل في المطار فسي استوكهولم حتى يكون في استقباله مندوب عن الشركة وبأخذه ليتم التعارف بينه وبين « بوسفلت » مدير الشركة التي سيتعاقد معها .. ويدعوه « بوسفلت » لقضاء السهرة في أحد الملاهي ، وهناك يتعرف « بايف » قائدة الاوركسترا التي تعزف في الملهى ، و « ايف » هذه كانت تعشق شابا مصريا اسمه « حمدي » أمضى بعض الوقت في السويد للدراسة في الجامعة ثم عاد الى بلاده ، وأعجبت ايف بشعر يوسف الأزرق على حد تعبيرها ، وبالرغم من انه حاول إقناعها بأن شعره اسود ، الا انها صرت على انه أزرق وتعتزr ايف عن عدم المخي في السهرة معها نظرا لارتباطها بموعد ولكنها تخبره بأنها ستكون تحت امره في أي يوم يمر عليها بعد منتصف الليل ، واتفقا على أن يلتقيا غدا في الموعد المحدد ، ويتركه بوسفلت ، بحجة انه ينبغي أن يعود الى المنزل لان غدا الأحد وهو اليوم الذي يقضيه مع أسرته .

وفي اليوم التالي ظل يتجول في شوارع استوكهولم بلا هدف سوى انتظار مرور الوقت حتى يأتي الموعد المحدد للقاء ايف .. وكان الوقت يمضي مثاقلا ، فكر ان يرضيه في أحد الملاهي ، وفعلاد دخل أحد المسارح التي تعرض استعراضا راقصا ، وبدأ العرض ، كانت الفرقة الموسيقية يقودها مايسترو متقدم في السن ، بعد لحظات دخلت امرأة شابة جميلة وجلست بين أعضاء الفرقة ووضعت يدها على خدها واخذت تنظر الى المايسترو وعلى وجهها سمات الحزن ، ولفت وجودها نظر يوسف اخذ يخلق فيها تاركا الاستعراض الذي كان يملا .. وفي اثناء الاستراحة — وكان قد جذب انتباه المرأة — يتعرف اليها ويتفقا على قضاء بعض الوقت معا حيث كانت جوليا زوجة المايسترو في حاجة الى القيام بجولة على استوكهولم منذ زمن بعيد ، ونظرا لانشغال زوجها كتمت هذه الرغبة في صدرها ، وما ان تعارفت على يوسف حتى انتهزت الفرصة لقضاء بعض الوقت مع سائح ، ويقضيان وقتا ممتعا ينهزي في السرير .. ونقرر اخبار زوجها لانها قد اعترمت طلب الطلاق منه ، كان حب يوسف منصور قد غزا قلبها بعد ان امضت معه ليلة ممتعة ، واقتنصته من صديقته ايف التي قالت لها : اذا كنت في غنى عنه دعي لي .. ومرت الاحداث على يوسف منصور شريطها كان بسبب له بعضا من الدهشة ، لقد نسي خادمه عم جمعة ونساءه الثلاث في القاهرة : نادية وسعاد وهدي ، نادية التي ينساق معها وسعاد التي يرقص معها وتشاركه السهرات ،

الرجاء واخذ يسب زوجها ذلك الرجل المعجوز الثالثه الذي يستغل امرأة شابة ، وحاول تقبيلها الا انها دفعته عنها وصغته على وجهه فانها عليها ضربا وتركها .. سار في الطريق وكانت تمطر ، وعندما وصل الى الفندق احس بالمرض ، هاجمه البرد ولجا الى السرير ، واخذ يحدث نفسه ، ماذا سيحدث لو مات ، ماذا سيفعل اصداؤه ونساؤه وعمه وخادمه .. وفجأة سبغ رنين التليفون ، رفع الساعة كانت جولييا ، قررت للحاق به واحضرت حقايبها ، وسعدت اليه ونابت السى جانبه .. وكانت قد تشاجرت مع زوجها الذي حاول معاقبتها بطريقة الصمت والالتجاء الى غرفته !

وربما الطائفة في رحلة السى كوينهاجن — باريس الشمال — ، كانوا سعيدين برحلتها وكان منظرها داخل الطائفة مثار اعجاب المضيفة التي كانت تحدث الخادم عن قصتها : الشرقي الذي يعشق ذات الشعر الاشقر ، واكتت المضيفة له انها لا تستطيع ان تتزوج مثل هذا الرجل ، وانها يمكنها عشقه في ليلة مقبرة تحت سحج الاحرامات لانها يخطفلان ولا يمكن لاحدهما فهم الاخر .. وعندما هبطت الطائفة وذهبا الى الفندق ، حكى جولييا ليوسف قصة حياتها وزوجها من جوانا ، وكيف انها كانت تعمل في أحد الفنادق عندما وجدت أحد الزلاء يعاني من المرض فمرضته وكان هو زوجها ، وكيف كانت تعيش والدها وتكره والدتها ، وبعد يوسف رسالة الى مندوب الشركة الذي عينه بوسفلت لرافقته في زيارة المصانع يعتذر فيها متحججا بأنه في مهمة هامة سيعود منها بعد بضعة ايام .

وفي كوينهاجن امضيا سهرات ممتعة ورتصا وسكرا ، واعترف لها بالزيد من حبه وكيف اتسه اشترى لها عروسة يوم ان انتظرها في المطعم ولم تجيء . وقررا السفر الى كريستي برلي (شاطيء اللؤلؤ) .

وغادرا الفندق بعد ان حرما حقايبها وعندما حاولت جولييا ، دفع نصيبها من الحساب غضب يوسف ، انه الرجل ، وكان ذلك مصدرا لمساعدة طابعية لديها ، احساس نادر لأول مرة يسير على عليها .. وذهبا السى الشاطيء يتبعان بالنظر الجميلة ، وفي المساء عندما اوى معها الى الفراش واستسلم لافكاره وفكراته حكي لها عن قصة حياته وكيف ماتت امه التي كان يعبد وكيف تزوج والده امرأة اخرى انجبت له ولدين ، وكيف تكفل بزوج جسده .. كان ابوه جراحا شهيرا — وقد حلم بان يكون مثله لكن عاهته — اصعبه المشلول —

وهدي التي تنصب له الفخاخ كي تتزوج ، لم يكن يظن انه سيقع في الحب هكذا سريعا ، وسيتورط مع امرأة متزوجة .. واين ؟ في السويد .

وبعد ان قضيا الليلة معا ، استيقظ يوسف في الصباح ، وجدها واقفة تنظر من النافذة ، اشتاق اليها مرة اخرى وحاول تقبيلها ، ولكنها لغت نظره الى شعر فخته الذي نبت وان عليه ان يغسل وجهه ويأخذ حماما .. واخذت تتحدث في التليفون ، سالها : مع من تتحدث ؟ فاخبرته بانها تتحدث مع زوجها وتخبره بالاسباب التي جعلتها تبني خارج المنزل ، واتفقا على ان تذهب لزوجها وتخبره بكل شيء لانها لا تحب ان تكون زوجة خائنة ، مستطلب الطلاق ، واتفقا على ان يتقابلا في أحد المطاعم ، وتركته على موعد ، وتوجه هو السى بوسفلت ، لانهما السفعة التي اودت الى السويد من أجل اتبامها ، وتحدثا واخبره انه امضى سهرته بصحبة شقراء جميلة في مدينة (اللاهوي) (التيغولي) ، وقال بوسفلت : ارجو يا صديقي ان تلاحظ اننا هنا في السويد نعاتي من ارتفاع نسبة الاطفال غير الشرعيين .. واقتريا على موعد ، حيث كان لا بد من ان يزور احد المصانع التي تنتج الورق وليعائين على الطبيعة .

وذهبي في الموعد للحد لمقابلة جولييا ، في المطعم وكان في وسط حديقة جميلة ، وظل ينتظرها لكن الوقت مضى وحل الموعد ولم تحضر وطال الوقت ولم تحضر ، احسن بالغلق وتحول الغلق الى شك : ربما تكون جولييا من ذلك النوع من النساء اللاتي يمسطن الاجانب لاشباع نزواتهن ولكن الغلق والترقب بدأ يبعلمان اثرهما ، فقرر الذهاب الى المسرح الذي يعمل فيه زوجها وهو المكان الذي رآها فيه لأول مرة ، وبدا العرض السخيف الذي يقود زوجها موسيقاه ، ولم يجدها تجلس مع العازفين .. ونشأت لديه مشكلة : كيف سيقابلها وهو لا يعرف عنوان سكنها ، وتحاول حتى عرف عنوان زوجها من ادارة المسرح بحجة انه سيعيب بياقة من الزهور السى المايسترو اعجابا منه بفننه .

فتحت جولييا ، الباب فوجدته امامها ، ولم تبد عليها الدهشة ، لكنها كانت تتوقع حضوره ، سالها عن اسباب تخلفها عن المجيء ، لقد انتظرها كثيرا ، واخبرته بانها قالت لزوجها كل شيء عن علاقتها وعن الاسباب التي من اجلها تطلب الطلاق ولكن زوجها رفض ، بل انه بكى بين يديها راجيا عدم تركه وطلبت من يوسف نسيان هذا الموضوع ، الا انه رفض الاستجابة لهذا

سهول دائية ، الانسان هنا يمكنه الهرب الى الطبيعة في مصر يهرب الى داخل نفسه ، كان منظرها منظر عروسين ، وكان ذلك مصدر اعجاب السياح المعجزة ، وحال الطقس بينهم وبين رؤية الشمس في « بودو » ، ولكنهم من الطائرة وغرق السحاب يمكنهم رؤيتها .. وبعد هبوط الطائرة توجهوا لزيارة كنيسة « بودو » التي كان النازيون قد هدموها بالتقابل ، ورجعوا الى الفندق في المساء مرتعين غنابا .

وايقظته في الصباح مطلعة ، اخبرته ان زوجها ينتظرها في بهو الفندق .. رفض ان يدعها تنزل لمقابلته وحدها ونزل معها ، تحدثت مع جونا ، بالسويدية وتحدثت جونا معه .. طلب منها العودة الى بيتها ، لقد تعطلت ، لم يعد يشرب اللبن قبل النوم ، ارزأ قمصاته لا يجد من يخلها له ، التراب تراكم على اثاث المنزل ، نوته الموسيقية غير مرتبة ، وبالفعل قررت اللحاق به - ومغادرة يوسف ، الذي لم يفلح في اقناعها بالبقاء معه ، وافترقا . وعاد الى القاهرة حزينا كاسف البسال ، ووصلته رسالة منها : تفهم ان زواجها فوق حبها ، وأنه لكي يفهما يجب ان يتزوج .

وتحتوي الرواية على ست شخصيات : يوسف منصور ، جوليا ، جونا ، يوسفات ، ايف وحدي .. يوسف منصور بطل الرواية شاب مصري من هؤلاء البرجوازيين الذين عاشوا حياة شبه مترفة ، وهو يعيش في مستوى لا بأس به ويعاشر ثلاث نساء في آن واحد : واحدة يمارس معها الجنس والثانية يشبع معها جوعه الى العطف والحنان وما يشبه الحب والثالثة للاشواق .. ويمكن ان نصف البيئة التي نشأ فيها بأنها بيئة - الى حد ما - نموذجية ، اقصد مثالية لنشأة امثاله ، فلقد توفيت امه التي كانت تعيش في تعاسة بالغة مع والده الذي كان يعمل جراحا ماهرا ذا شهرة عريضة وقد تزوج ، اقصد والده ، بعد وفاة امه واتجب ولدين من زوجته الثانية ، اما يوسف فقد تكفل به جده ، و « جوليا » سويدية شابة زوجة موسيقار تمشي في استوكهولم ، ولقد كان فارق السن الواضح بينهما والعمل الذي يستغرق معظم وقته وعدم انتباهه الى انها ما تزال صغيرة السن وتحت الى اجواء الشباب بكل ما فيها من مرح وانطلاق عاطفي وغريزي سببا في اندفاعها الى احضان يوسف منصور الذي كان يبحث عن مغامرة في السويد ، ولان المغامرة لم تتجاوز حدودها بالرغم من تغليفها باطار الحب فقد انتهت او

كان عقبة فضلا عن ان احلام اليقظة التي سيطرت عليه حالت بينه وبين دخول كلية الطب ، لانها اثرت على مستواه الدراسي فلم يتمكن من الحصول على مجموع من الدرجات يؤهله لدخول تلك الكلية ، ومات ابوه وانقطعت صلته بكل شيء منه ، الا انه وطد علاقته بعمه الذي تمكن - بنفوذ - من الحاقه بالشركة التي اوفدته الى السويد .. واستيقظ في الصباح فلم يجدها بجانبه ، ولكنه سمع اصواتا بلغته وضحكات مرحة ، اطل من النافذة فوجدها يحيطها بعض الشبان ، وارتنى ملابسه على عجل ونزل .. اكتشف انهم صحفيون من مصر اتوا في مهمة صحفية الى الدانمرك وكان وجوده مع هذه السويدية مصدر دهشة لهم ، واخذوا لهسا بعض الصور مما سبب ليوسف بعض القلق وسأله : كيف تعرفت بهم ، وحكت له انها سمعته يتحدثون بلغته وهذا اثار انتباهها . وذهبا معا لزيارة قصر « هابلت » .. كانت في شوق مطلق لذلك وقالت له انها سوف تزوجه على نثار بطيئة .

وزارا قصر السيفور قصر الامير هابلت ، كان الصحفيون لا يزالون معهم ، حدثه احدهم عن خطورة الارتباط بمثل هذه المرأة ، وعندما رجعا الى الفندق حاول تنبيهها ، ورفضت بحجة انها ليست لمبة ، ثم بعد ذلك منحتة نفسها وفي الصباح استيقظت فلم يجدها - مرة اخرى - ونزل الى ساحة الفندق ، اخبره موظف الاستعلامات انها توجهت الى القنابة والمفتنطرة الى انه يمكنه السفر الى اوسلو لمشاهدة شمس منتصف الليل في القطب الشمالي ، ونشأت مشكلة - اوشكت تقود على التناهد وهو لا يستطيع ان يطلب تصورا من شركته لانه لم يحقق تقدما في مهمته ، وفكر في حيلة ، ان يخبرهم في القاهرة بأنه يحاول عقد صفقات اخرى في النرويج وذلك للضغط على الشركة السويدية لتخفيض اسعارها وبهذا يكون قد ضرب عصفوريين بجحر واحد : التمتع مع جوليا وتحقيق نجاح تجاري ، وذهب اليها في القنابة ، وجدها تقرا في كتاب عن القطب الشمالي ، وطلب اليها ان تستعد لاتها مسافران الى النرويج وكان ذلك مصدرا لمساعدتهما الغامرة .

ووافقا في القاهرة على مشروعه الخيالي ، استقلا طائرة من اوسلو الى مدينة « بودو » وذلك لرؤية شمس منتصف الليل .. كان يرافقهما فوج من السياح الامريكيين ، ومن الطائرة كان يشاهد الطبيعة .. الارتفاع والانخفاض والسهول والجبال والوديان .. في مصر

بالأحرى تحطمت كل المشاريع بين جوليا وعشيقها يوسف عندما تحرك الزوج لاسترداد زوجته ، ولقد كان سبب زواج جوليا ، من زوجها تقدمه في السن لانها كانت تمسح والدها ، وتكره أمها ، وبالمثل فقد اتدفع يوسف الى أحضان جوليا ، لانه وجد فيها شبيهاً ببنتها وبين اسمه .!

اما بوسفلت ، مدير شركة الورق التي سافر يوسف ليعتاد معها على توريد الورق لشركته في مصر فهو رجل ضخم الجثة .. رجل أعمال يقدمه لنا المؤلف بسدون عواطف ، فعندما وصل يوسف الى استوكهولم كان اول ما فعله دعوته الى سهرة في أحد الكباريات ، وهو متزوج .. وهناك جوتار زوج جوليا ، ذلك الرجل الذي كاد أن يفقد زوجته التي انسافت وراء غرائزها وفراغها العاطفي ، يقترب من الكهولة ، ولم ينتبه الى ذلك الا عندما أحس فعلاً بأنه مقدها فتحرك ، ولقد استعادها بطريقة مزرية .. تذلل .. ومن هنا كان رجوعه اليه تفضلاً منها عليه نظراً لضغفه واحتياجه لها وتوفيره منزل الزوجية لها .

والشخصيات الأخرى مثل ايف ، التي تعمل في كبرايه وتصادق أليانث مثل حمدي الشاب المصري الذي أمضى معها أوقاتاً طيبة وعلمها بعض الكلمات العربية مثل : أحبك ، اموت غيكي ، فلم تكن ذات أثر في مسار الرواية ، ومن ثم تنحصر الأحداث كلها في الشخصيات الرئيسية : يوسف وجوليا وجوتار وان كان الأخير لم يبد تأثيراً له أهمية في مجرى الصراع في الرواية وأن ظل شبيحه — طيلة الوقت — مشاركا ليوسف وجوليا في مغامرتهم في الفنادق التي قضوا فيها لقاءاتها .

ذكرت منذ سطور ان يوسف كان يبحث عن مغامرة ، وهو قد اهتمل فرصة سفره الى السويد للعيش في مغامرة وهو ككل شرقي او بمعنى أدق ككل سائح يسافر الى بلد أجنبي يحلم بمغامرة ، وعندما وصل السوي استوكهولم ولست أقدار أرضها « كان بين وقت وآخر ، تصادفه فتاة سويدية جميلة .. كل السويديات جيلات .. انهن جميعاً يذكرنه بصور البنات في اعلانات — معجون الاسنان — التي يراها في صحف القاهرة .

وكان يتذكر ما سمعه وقراه عن بنات السويد ويتوقع انه لو نظر الى فتاة سويدية ستبادلته النظرات ولو ابتسم لها ستبتسم له ثم يكلمها وتكلمه .. « ويضيف

الى مغامراته مغامرة جديدة يرويه لاصدقائه عندما يعود الى القاهرة » (ص ٧) .. وهو ككل سائح شرقي يعتقد أن الفتيات في أوروبا يرتدين في أحضان أبناء الشرق بمجرد ان يشمن راحتهن لكن الرجال هناك لم يعودوا رجالاً بله السويديات اللاتي قرأ أنهن يعشن في فوضى جنسية حيث البنت هناك تملك من الحرية ما لا يملكه الرجل الشرقي نفسه وتستطيع ان تمارس الجنس منذ تمي للكلمة معنى ، بل انها لو لم تمارسه تصبح غير مجربة في نظر الرجل السويدي الذي ينأ عنها .. بهذا الاعتقاد نزل يوسف الى أرض السويد ، وبالرغم من انه رجل يعيش في القاهرة تحيط به ثلاث فتيات يحببته ، فغلب كان في شوق الى السويديات اللاتي حلم بهن بعد ان قرأ عنهن .. بل انه عندما اقتضت ماله خيالات فتيانه الثلاث استنكر ذلك : « ما الذي جعله يتذكر البنات الثلاث .. عندما ارتفعت الطائفة حلقه فوق مطار القاهرة في طريقه الى السويد تنهد وهنأ نفسه بالخلاص منهن . كانت علاقته بين غير طبيعية .. كان يحب الثلاث في وقت واحد .. واذا غابت منه أحدهن شعر بنقص كبير .

« نادية كانت تقضي معه الليل وكان يشعر بالامتنان وهو راقد على السرير الى جانبها فينام ملء جفونه ويستيقظ في الصباح نشيطاً مرحاً .
« وسعاد كانت تخرج معه في السهرات ، ترقص في الميناهوس و « البافويون دي جولف » وقاصد خير ، ويشعر بنشوة كبيرة وهي تدخل الى جانبه اي مكان عام فتلفت اليها الانتظار انها تعرف كيف تلبس وتعرف كيف ترقص ، وتستطيع ان تخلق جواً مرحاً حولها في اي مكان تذهب اليه ، ومع اي شلة تختلط بها ..

« اما هدى عاطفية جداً ، وهي تجيد الكلام في التليفون وتساله عن عمله ومشاغله ، تحيله بجومن الامومة ولكنها مكره تعلقه بحساب ولا تسمح له باكثر من قبلة سريعة على خدها ثم تبتعد عنه وتدفقه بعيداً عنها في حنان ، وتدير الخطط ليتزوجها » (ص ٩) ولعل هاته الفتيات فتاة واحدة يحلم بها يوسف .. امرأة يمكنها ان تشبع شبعه الجنسي ويفخر بها كسيدة مجتمع أنيقة وتشبع جوعه العاطفي الى صدر الأم الحنون ومن ثم وفر له المؤلف ثلاث فتيات في آن واحد ولكنهن — على ما اظن — كن في دنيا خياله وليبسوا على أرض واقع حياته المعاش ، والا فبماذا تبرر اندفاعه الى أحضان جوليا ، اذا كانت الفتيات الثلاث يشبعن كافة حاجاته البيولوجية والنفسية ولماذا قرر الزواج من

المراة أفريقية تنظر الى الرجل الشرقي على انه ذلك الرجل الذي يمكنه اشباع خيالاتها اما ان يكون زوجها وابا لأولادها مدونه المستحيل ، فماذا كما كانت تنظر نساء مصطفى سعيد الانجليزيات في « موسم الهجرة الى الشمال » كن ينظر اليه كتحفة سوداء قادمة من قلب الغارة المظلمة افريقيا ، تحفة سادية تشبع نزواتهن المازوكية ، وكما استمتعت سوزي بمحسن في « عصفور من الشرق » و « فرند » و « ايلين » بد « صاحبا » في « ادب » .. الوحيدة التي حاولت تغيير رجلها الشرقي وخلقه من جديد — بعيدا عن الجنس — كانت « ماري » الانجليزية في « قنديل ام هاشم » .. تاكد ذلك ايضا حينما قال بوسفلت ليوسف عندما ذهب معا الى الكباريه الذي تعمل به ايف « هيه .. اعجبتك .. انها شقراء .. وعيونهم رزقاء .. انتم تعشقون هذا الصنف من النساء انه متوفر عندنا بكيات هائلة . اكثر من الورق الذي تريد شراءه . كل ما عليك هو ان تأمر » . (ص ١٦)

ولقد انمكتست هذه الفكرة على طريقة دخول جوليا حياة يوسف اثناء تواجده باستوكهولم فهو — اي المؤلف — قد ادخلها بالطريقة التي تتواءم مع احلام يوسف في المعور على مغامرة .. رجل ينظر الى امراة ويسحر بعينه يجذبها ناحيته ويلتقيان ويمارسان العشق في الفنادق ويتفقان على الزواج ويفترقان .. هكذا .. عندما ذهب يوسف الى المسرح لتعزية الوقت قبل ان يحين موعد لقائه مع ايف ، يقول : « وعندما انفرج الستار ، وفي هذه اللحظة ، دلفت من خلف الستار الذي دخل منه المايسترو ، امراة لها ميثان تلعبان كانهما عينا قطرة .. وجلست على مقعد الى جانب الستار ووضعت يدها على خدها ..

« وكان هذه المرأة قد وضعت يدها على قلب يوسف .. مست قلبه هذه الحركة البسيطة ببدها ونظرانها المستكنة الى المايسترو وجلسوها بين العازقين بلا عمل ..

« وحق يوسف بعينه مخترقا الظلام في وجه المرأة الذي بدا يتضح له شيئا غشيا ، كانت على بعد ثلاثة او اربعة امتار منه وجهها طيب حنون كأنه يعرف هذا الوجه ورآه من قبل في القاهرة انه وجه مالوف هذه التقاطيع الدقيقة واللامح الحزينة والعينان الناعمتان المستكنتان اللتان تشعان في نفس الوقت ببريق حاد . كان في داخلها حريق مأساة ..

جوليا ؟ هل كانت في نظره يمكنها الحلول محل الفتيات الثلاث ؟ سئري بعد ذلك انها لم تكن تستطيع تجاوز دورها كعشيقة لانه عندما فكر في الزواج قرر « ان يختار واحدة لا صلة لها بحياته قبل الزواج ، ليبدأ عهدا جديدا يتقن فيه نفسه ويقنع الجميع بأنه أصبح عاقلا وتورا ، وبعد ذلك اذا اراد ان يقدم على مغامرة فليكن ذلك في السر وفي كتمان شديد » (ص ١٠) .

ومثلها ينظر الرجل الشرقي الى المرأة في الغرب ، نظرة فيها الكثير من الخطأ ، تنظر المرأة الغربية الى الرجل الشرقي .. تمثل هذا في المحادثة التي جرت بين المضيفة والخدم في الطائرة التي اطلقت يوسف وجوليا الى الدانمرك .. « ونظر الخادم الى المضيفة بعين فاحصة وسالها في خبث :

— هل من الممكن ان تقعي في حب رجل شرقي ؟
فاجابت على الفور :

— نعم احبه ..

وبدا عليها التردد والتفكير ثم استأففت قائلة :

— احبه .. ولكني لا اصادقه ..

وضحك الخادم لاجابته الغربية وقال متعكيا :

— ما معنى هذا الكلام .. تحبينه ولا تصافقينه ..

هل هذا ممكن ؟

فغالت المضيفة في ارتباك وهي تبحث عن كلمات تعبر عما تشعر به :

انظر اليه .. انه شاب وسيم .. رجل حقيقي .. واعتقد ان اية امراة تقع في حبه ولكنه شرقي طباعه غريبة عنا ولا ادري ماذا قد يدور في راسه من افكار ولا اعلم شيئا عن عاداته .. مثل هذا الرجل قد احبسه في لحظة غريبة .. احبسه في خيالي او في ليلة مقبرة عند سفح الاهرام او في القاهرة او في حديقة بيت فارسي في طهران او ونحن نرقص تحت سماء دلهي حيث تكون النجوم قريبة منا في تناول اليد ..

وبلغت المضيفة ريقها وهي تقاوم نظرات الخادم الساخرة ثم قالت :

— ولكني لا استطيع ان اكون زوجة او صديقة له ، افهمه ويفهمني ..

وقال الخادم وقد امتزجت الدهشة بسخريته :

— انا لا افهمك ..

— لانك لست امراة ..

— اشكر الله اني لست امراة .. » (ص ١٢١)

(١٢٢) .

« وتذكر يوسف صورة أمه التي يحتفظ بها في درج الكومودينو » إلى جانب سريره في بيته في القاهرة وقال لنفسه في تأثر : أنها تشبه أمي » .

« وتفر إلى رأس يوسف خاطر مفاجيء .. ولكنه - حقه في الحال .. أنها زوجة هذا المايسنرو هو أكبر منها بي - من وهي في سن ابنته ومع ذلك فلا شك أنها زوجته لو كانت ابنته لأذهبت ترقص مع صديق أو خرجت مع شلة في إحدى السهرات وحدها مع زوجها هي التي ترضى بأن تقضي يوم الأحد مع زوجها في المسرح .. لم تجد مكانا آخر تذهب إليه فحضرت معه إلى هنا ووضعت يدها على خدها تمني حظها الذي جمل زوجها يعمل في اليوم الذي يستريح فيه الآخرون » (ص ٢٠ - ٢١)

وعندما خرجا يوسف وجوليا وتوجلا في المدينة كان داخله يقول له : « ان هذه المرأة التي تجلس إلى جانبه زوجة مستعود إلى زوجها بعد قليل وهي تعامله كجسد غريب تريد أن تفرجه على المدينة وتقضي معه ساعتين حتى يغرب زوجها من عمله » (ص ٣٤) .. وعندما طالت المدة إلى أيام كانت الحجة أيضا - رغم تغلبها بغلاف الحب - ان ما فعلته هذه المرأة مجرد نزوة لحين ان يفيق زوجها ويستعيد نفسه ، واكدت ذلك ايف عندما التقى بها لأول مرة مع بوسفلت .. « وقاطع نفسه : ولكن ايف نظرت إلى شعري الاسود وأصرت على ان لونه أزرق .. لقد نظرت الي كما لو كنت مخلوقا سحريا قادما من بلاد العجائب ، ان في رأسها ذكرى مغامرة .. ذكرى عواطف ملتهبة وليالي ساخنة أنها لا تريد ان ترى او تسمع .. أنها تريد ان تنفجر .. تريد ان تتطلق في جو من الخيال مع شاب أزرق الشعر » (ص ٣٤) .. وقد انطلقت جوليا بدلا من ايف معه ، انطلقت معه في جو رومانسي متنقلة من فندق إلى فندق حتى القلعب الشمالي ثم أخيرا عادت إلى زوجها .. بعد ان اكدت له بقولها : « اننا نلعب .. لا شيء أكثر من هذا .. » (ص ٦٣) ..

ولقد كانت صداقة مع نفسها بعكسه هو الذي تمزق تمزقا واضحا عندما قررت ان تعود إلى بيتها وزوجها وكان عليه ان يدرك أنها سوف تعود ان أجلا أو عاجلا لو تمن في قولتها له : « يجب الا تكون مبيدا لشيء » (ص ٥٠) .. « أنه شيء غظيم ان يبكي جونا .. لو كنت تعرفه لهمت بما أعني ، انا لم أجعل يبكي .. لقد قتلت .. » (ص ١٠٦) كانت هذه المرأة على وهي

تام بما فعله ، كانت تشتاق إلى التمرد على ذلك الزوج المنقبض .. تجلى ذلك في حديثها عنه ليوسف عندما ذهبت لتخبره بمغامرتها مع ذلك الإنجليزي الاسمر قالت : « عدت إليه في الصباح وطلبت منه ان يجلس ويستمع إلى وحدته عن حياتي معه وصارحته بأنني لم أكن سمعودة معه ، قلت له ان نصف حياتي كانت أحلاما حبيسية ، في رأسي أشياء أريد أن أفعلها ولا أفعلها - قلت له أنه عاقل جدا وورزلي - وأنه يعيش مع الموسيقى كراهب في دير ، ولقد عودني على ان أحترم رهبنته ووقاره .. فلم احدثه عن أحلامي » .

« كنت أخشى اني لو حدثته عما أشعر به ، فسكون حديثي سخيفا فارغا ، كيف اطلب منه ان يأخذني إلى - النيقولي - لتركب المراجيح ونأكل السجق في الشارع .. كان يضايقي انتظامه في عمله كأنه ساعة مضبوطة لا تؤخر ولا تقدم أبدا .. اكدت أتمنى ان يأتي يوم احد فينور ويقول انه لن يذهب إلى المسرح وسياخذني في رحلة إلى إحدى الجزر ، كنت أتمنى على الأهل ان يحدثني عن رغبتهم في ان يفعل هذا دون ان يحققه ولكنه عاقل جدا ، وقور جدا .. لا يخطئ أبدا ولا يثور أبدا ، ويقدس عمله إلى درجة تثير الغيظ » (ص ١٠٦) .. أما ليوسف فلم يكن يعرف ماذا يفعل ، انشاق وراء غرائزه وأوهامه ، ومن ثم لا تعدو علاقته بجوليا ان تكون نزوة كما سبق القول ، نزوة سائح أجنبي غلفت بستارة رومانسية من العواطف المتأججة من امرأة جائعة إلى الانطلاق ورجل لا يعرف لنفسه هوية . فقط التملك يسيطر على نفسه من تأثير احساسه الحاد باليتم . « أمه انصرفت عنه ، ماتت وهو في السابعة من عمره وأبوه انصرف عنه ، تزوج ثانيا وتركه مع جده ليكتله ، ثم مات أبوه ومات جده ، الجميع انصرفوا عنه .. أنهم لا يعودون أبدا ، تركوه بقسوة .. تركوه بلا رحمة » (ص ١٠٦ - ١٠٧) .

والواقف في الرواية ناضجة ومتسقة مع تاريخ كل شخصية والاحداث لها ما يبررها وتتأهيا بمنطقي ، فموقف يوسف منمور من حبه وشبهه الجنسي لا يتناقض مع خط سير حياته قبل القدوم إلى السويد ، فلقد كان يعيش في القاهرة كهارون الرشيد تحوطه ثلاث فتيات .. وجوليا كانت متوائمة مع الظروف التي وجدت نفسها فيها مع ذلك الغريب القادم من تلك الأرض البعيدة وراء البحار ، كان انطلاقتها ونسبائها لبيتها وزوجها حصادا منطقيًا لحياتها الجائعة مع ذلك الزوج الفنان المجدب العواطف وكان جونا الزوج مناسباً حتى تتسكن

تعيش بلا قيود ، على عكس مصطفى سعيد في «موسم الهجرة الى الشمال» الذي كان ساديا يصطاد نساء مازوكيات وضمعن الطبيب صالح كعامل موضوعي لاوروبا . وهنا لم كانت جوليا تمثل اوروبا ؟ على العكس يحس القارئ بأنه يمكن ان يصادف أمثال جوليا في مصر ، وربما — كما سبق ان ذكرت — لم يفتن المؤلف الى انه سيناقش علاقة الشرق بالغرب في الرواية، وإنما اقتصر طموحه على كتابة رواية عادية دون ابعاد ، ويوسف بالمثل لم يكن يمثل شيئا هاما ، فهو يشابه الكثير من الشبان في اوروبا لانه لم يكن يحمل معه سوى تفكير كسائح اجنبي من أي بلد في أي بلد على عكس بطل « عصفور من الشرق » و « اديب » و « اقتديل ام هاشم » و « موسم الهجرة الى الشمال » فلقد سافر كل منهم حاملا معه وجهة نظر حضارية تحطمت او استفادت من الحضارة الغربية . . موقفان اثنان ربما يدخلان في روع القارئ ان بطلي الرواية لديهما وعي حضاري : الاول عندما تحدث يوسف الى جوليا ، وهما في الطائرة في رحلتها الى القطب الشمالي لمشاهدة شمس منتصف الليل ، قال : « هنا . . مع كل خطوة تشاهدان افقا جديدا . . مع كل خطوة تتغير صورة العالم ، قمة جبل تظهر ، غابة

زوجته من اعلان التمرد ، والاحداث الرئيسية في الرواية واهمها لقاء يوسف بجوليا — وان بدا رومانتيكا بدرجة مبالغ فيها — الا انه يتسق مع وجهة النظر التي حملها يوسف معه من مصر الى السويد وهي انه يمكنه بنظرة مركزة فيها الكثير من الدهشة والتساؤل التعرف على فتاة اجنبية . . فقط فاته انه كاجنبي سيلتظن النظر في كل مكان يذهب اليه ومن ثم فلقاؤه بجوليا بالطريقة التي وصفها المؤلف ، عادي . والبناء المعماري للرواية معقول وان افقت الايديولوجية لان المؤلف لم يختر شخصية يمكنها التعبير عن الرجل الشرقي بصدق .

والشخصيات في الرواية مرسومة بدقة وابعاد كل شخصية ودورها محدد ، وقد وفر فتحي غانم لابطال روايته كل الظروف المواتية التي تبرر تصرفاتهم سواء كانوا فرادى او متشابكين . . يوسف شبه تاجر حالم ، وجوليا زوجة محرومة وجونار زوج مجوف وبوسلفت سويدي فتح وايف غائبة تحلم بمغامرة مع اجنبي ، وحدي خيال لكل شرقي مغامر ، وكان اختلاط تلك الشخصيات مع بعضها وتصارعها احيانا مثير جدل داخلي يحتمد داخل القارئ على ما اظنن ، فعندما اشتبك — فنيا — وبوسلفت مع يوسف تعرف الاخير على ايف وعندما اشتبك يوسف مع ايف وجد نفسه في احضان جوليا وعندما تصارع يوسف مع جوليا كان جونار في الانتظار . ولم يكن امام يوسف سوى الرحيل حزينا كاسف البال .

ويمكن القول بلا تردد ان فتحي غانم كاتب جيّد حيك رواياته وقصصه . . فهنا الجو الروائي متوافر بمعنى ان حياة كائلة تقدم الينا ، والبرودة والسخونة منذ السطور الاولى في الرواية تتحكم ، الامر الذي يجعل القارئ يرجح بأنها كانت تجربة شخصية للكاتب، فهو صحتي وكان مسؤولا عن ادارة المؤسسات الصحفية في مصر وهي بالطبع تهتم بالورق السذي يشتري من بلاد الشمال .

ولكن الرواية تفتقد ذلك اللمهيب الجنسي المثير الذي رايناه في « موسم الهجرة الى الشمال » ، وبالرغم من ان يوسف بمنصور يسيطر عليه الشبق الجنسي ، فلقد اقلعت الفرصة من يد فتحي غانم لاستخدام الجنس كوسيلة غنية لاستبطان اعماق كل من يوسف وجوليا ، بالرغم من ان عشقها كان دائما مبتدئا بالجنس وخلافاتها تنتهي دائما بالجنس ، ومن ثم كان همهم يوسف للجنس مها عابدا ، انسان عشق امرأة تود ان



البداءة والحضارة وعملنا الاجتماعية

في حديث مع الدكتور علي الورد

الدكتور علي الورد الاستاذ
المدرس بجامعة بغداد .. باحث
اجتماعي له باع طويل في مضمار علم
الاجتماع .. صدر له من
الكتب المطبوعة : شخصية الفرد
العراقي (١٩٥١) ، خوارق
الاشعور (١٩٥٢) ، وعاط السلطين
(١٩٥٤) مهزلة العقل البشرية
(١٩٥٥) ، اسطورة الادب الرفيع
(١٩٥٧) ، الاحلام بين الملم
والعقيدة (١٩٥٩) ، منطق ابن خلدون
في ضوء حضارته وشخصيته (١٩٦٢)
دراسة في طبيعة المجتمع العراقي
(١٩٦٥) لحات اجتماعية من تاريخ
العراق الحديث الجزء الاول
(١٩٦٩) من بداية العهد العثماني
حتى منتصف القرن التاسع عشر ،
الجزء الثاني (١٩٧١) من سنة

أجرى
الحوار
عبد
المبسط

تختفي .. واد يصادفك .. هنا الطبيعة مليئة بالخبايا
والاسرار .. يخيل الي وانا مسافر اني ابحت عن ملجا
في الطبيعة .. ابحت عن ماوى .. او اريد ان افر من
ماوى ، هذا الشعور لن تجديه ابدا في مصر .. الطبيعة
هناك مكتسوفة متجردة ولا يمكنها ان تؤويك او تحاصر
.. انها عراء بلا خبايا .. بلا اسرار .

فسألته جوليا هامة :

— واذا اردت ان تهرب .. غالى اين ؟
قال :

— المهرب الوحيد .. داخل نفسك .. في بلدي تسقط
الناس في آبار عبيقة داخل نفوسهم .. كل الخبايا
والاسرار والضباب الذي تجدينه في الطبيعة هنا ..
تجدينه داخل نفوسهم في بلدي » (ص ٢٢٧ — ٢٢٨)
والثاني عندما قالت جوليا : « الرجال في بلدنا لا يضحون
بشيء من اجل المرأة التي يحبونها .. هذا لا يحدث
مطلقا .. انه مستحيل .. معجزة .. لقد فهمت الان
لماذا ترضى المرأة ان تكون جارية لسيدها الشرقي ،
لانه يدفع لها حياتها .. لانه على استعداد لان يموت من
اجلها لانه يضمها فوق كل شيء في حياته » . (ص
٢٢٩) .

وكنت اود لو تكن المؤلف من تقديم اعقاب جوليا كبا
اطلعنا على خبايا يوسف ، فلقد اكننى بتقديمها اليك
من الخارج ، ولم تقم بقية الشخصيات في الروايات
بادوار يمكنها المساهمة في تطور مواقف الشخصيتين
الرئيسيتين ، وتدمها المؤلف كديكور للرواية غير مبرر
بدرجة كافية ويبدو ان مفتحي غاتم خشي من تضخم حجم
الرواية .. وجونار زوج جوليا شخصية لا تستحق
التفضية — ربما لان المؤلف لم يطلعنا على مأساته —
لانه لم يناضل من اجل زوجته ، ويروده غير مبرر ،
فالرجل رجل في كل زمان ومكان ، ورجوع جوليا اليه
بعد استماعتها على يد ذلك السائح الاجنبي دليل على
انها تحبه وان مغابرتها مع يوسف لا تعدو ان تكون
اشباعا لجوع جنسي مختلف مع رجل اسمر مختلف لا
اكثر .

والرواية في النهاية لا تضفي شيئا هاما الى تجربة
اللقاء بين الشرق والغرب ، وربما كان ذلك بسبب عدم
انتباه مفتحي غاتم الى اهمية هذا اللقاء ، وكانت هذه
خسارة ، ما كان ينبغي ان تحدث لهذا الفنان الممتاز .

محمود حنفي كساب
طنطا — مصر

١٨٣١ - ١٨٧٢ ، الجزء الثالث (١٨٧٢) من سنة ١٨٧٦ - ١٩١٤ ، وسيصدر الجزء الرابع قريبا .. وهو يبحث في المارك الحربية التي وقعت في العراق خلال الحرب العالمية الأولى وما أدت اليه من أحداث اجتماعية تدل على طبيعة تكوين الشخصية العراقية .

عندما ذهب اليه في مسكنه لاسجل هذا اللقاء .. كان سؤالى الاول .. **ما هي بنية المجتمع العربي براك يا حباذا لو حددت لنا بعضا من خصائصه ؟؟**

★ لو نظرنا الى خارطة العالم بوجه عام لرأينا المنطقة العربية التي تمتد من المحيط الى الخليج تميز عن بقية المناطق في العالم بكونها اكبر امتداد صحراوي .. وهذا معناها انها اكبر منبع للبدواة في العالم . وبنفس الوقت يجب ان لا ننسى ان هذه المنطقة كانت مهد ارق الحضارات في العالم وظلت مركزا حضاريا مهما خلال القرون القديمة والوسطى ، حيث كانت الحضارة تنتقل من اقليم لآخر منه .

نستنتج من ذلك ان هذه المنطقة عانت ولا تزال تعاني صراعا وتفاعلا بين البدواة والحضارة ، ونلاحظ في تاريخ كل اقليم عربي شيئا من هذا الصراع والتفاعل على وجهه من الوجوه ، وانما يختلف اقليم عن آخر باختلاف العوامل التاريخية التي اثرت فيه ، ونلاحظ ايضا ان كل اقليم من الاقاليم العربية لا تكاد تحط الحضارة فيه في فترة من الزمن حتى تناسي البدواة لثملا الفراغ فيه وتسيطر ببقية الاجتماعية عليه . خذ مثالا العراق « هذا البلد الذي اولعت بدراسته زمنا طويلا » فقد وجدت انه في خلال ستمائة سنة في العهد

المغولي والتركى « اي منذ سقوط الدولة العباسية حتى الحرب العالمية الاولى » عانى انحطاطا حضاريا واضحا .. فضعفت الحكومة فيه وانهار نظام الري وذوت التجارة والصناعة والزراعة وقط السكان فبدات القبائل البدوية تتسلل اليه .. وتسيطر عليه ، الا انا وجدنا العراق في منتصف القرن التاسع عشر ليس فيه من معالم الحضارة القديمة سوى ظواهر سطحية .. اما القيم والتقاليد والعادات التي توجه تفكير السكان وسلوكهم فكانت في الغالب بدوية .. كمثل قيم الغزو والعصبية القبلية والثار والخيالة والضيافة والنفرة من الحكومة واحترام العمل والمهنة واحترام النخب والاسخواء .. الخ . ان هذا الذي لاحظناه في العراق قد نلاحظه في اي قطر عربي اخر .. على وجهه من الوجوه ، حسب الظروف التي مرت به ، ولكن الجذور البدوية موجودة في اعماقه .. والمشكلة ان الحضارة الجديدة عندما جاءت الينا لم تستطع التغلغل في الاعماق - وهذا امر طبيعى لا غرابة فيه - اذ ان من طبيعة كل حضارة جديدة تأتي ان يأخذ الناس منها ظواهرها .. بينما هم يظلون في اعماقهم على ما كانوا عليه قديما وهذا هو ما حدث فعلا - في المجتمع العربي حاليا - اذ نجد في شخصية كل فرد اعماقا تمت الى القيم القديمة التي تنسأ عليها آباؤنا واتسنا عليها - الى حد ما تغلغل في شخصية الظاهر مظاهر حضارية جديدة - ان كل فرد يختلف في تكوين شخصيته عن الاخر طبعيا .. كمثل ما يختلف كل قطر عن الاخر حسب اختلاف الظروف ولكن الطبيعة من حيث الاساس واحدة .. فالفرد

بدوي في اعماقه .. حضري في ظاهره .. فهو منشق على نفسه من حيث لا يدري وكثيرا ما يصاب الفرد بسا نسيبه بازدواج الشخصية من جراء ذلك ..

يتضح هذا جليا في تاريخ العراق .. حيث تناوبت عليه البدواة والحضارة مرة بعد مرة خلال تاريخه الطويل فتارة تزدهر الحضارة من حيث قوة الحكومة ونهوض الزراعة والصناعة والتجارة وتارة اخرى تجري الامور على العكس من ذلك لاسباب قد درسها المؤرخون « ولا مجال هنا بذكرها » وقد اشرنا آنفا الى ان الانحطاط العربية تختلف بعضها عن بعض ، من هذه الناحية .. الملاحظ مثلا انه في الوقت الذي كان فيه العراق قد انحطت حضارته في العهد العثماني والمغولي نجد مصر في نفس الوقت قد ازدهرت حضارتها ازدهارا لا يستهان به وهذا يخضع لمعامل شتى عسكرية وسياسية واقتصادية وغيرها ..

● **لقد ذكرت ازدواج الشخصية .. ماذا يعني المفهوم في علم الاجتماع ؟؟ وما مدى تأثيره على المجتمع ؟؟**

★ هناك فرق كبير في موضوع ازدواج الشخصية بين المعنى النفسي منه والمعنى الاجتماعي .. وفي المفهوم الاجتماعي هو ان يسلك الفرد سلوكا متناقضا دون ان يشعر بهذا التناقض في سلوكه او يعترف به وهو ينشأ عن وقوع الانسان تحت تأثير نظامين متناقضين من القيم او الماهيم .. فهو يتأثر بأحد النظامين تارة وبالاخر تارة اخرى .. واستطيع ان اقول ان ازدواج الشخصية كان منتشرا بين اولئك الذين ينشأون في بيئة دينية مترتبة يكثر فيها الوعظ فهم يتأثرون

بعض هذه التناقضات على سبيل المثال لا الحصر : - تناقض الحقوق والواجبات ، تناقض المصادر والوظائف ، وتناقض المرأة والرجل ، وتناقض الدين وأنجيل الجديد .

● الفرد العربي .. ما هي النواحي الإيجابية فيه ؟ ..

★ الواقع أننا لو رجعنا الى البداوة ذانها .. في محيطها الصحراوي الاول لوجدنا فيها نواحي ايجابية متميزة بالإضافة الى نواحيها السلبية .. ففيها الرجولة والتباسك الشخصي والمروءة والشهامة والكرم والنجدة والاباء والصرافة .. الخ .. وهذه لا تزال واضحة في الفرد العربي ولهذا نجد الاجنبي عندما يخالط العرب يعجب بهم ويجد فيهم من اللطف والانسانية ما لا يجده في اية امة اخرى ، ولكننا في الوقت ذاته يجب ان لا ننسى ان الجوانب السلبية للبداوة تلعب دورها في تكوين شخصيتنا الحاضرة .

● يرتأي بعض المفكرين .. ان نظل نحافظ على محاسن البداوة ونتخلص من مساوئها فقط .. فهل هذا امر ممكن ؟ ..

★ انه صعب كل الصعوبة .. ولعلنا استطع ان اقول ان الامور الاجتماعية لا تخضع لعملية الانتقاء كمثل ما تخضع الامور المادية .. وهناك رأي ريبا هو الرأي العلمي السائد اليوم في الاوساط العلمية هو ان الجوانب السلبية والاجابية في كل ثقافة اجتماعية .. انها هي مترابطة ترابطا عضويا لا يمكن للفصل بينهما والانتقاء منها .. وقد اصبح من الواجب على العرب اليوم ان يسيروا في طريق الحضارة ويتركوا ماضي البدوي بما فيه .. وهذا رأي قد يصعب علينا قبوله ولكنه مما لا بد

من يضعف فيهم .. وبين هؤلاء واولئك درجات شتى .. والملاحظ في الحياة الاجتماعية بوجه عام انه كلما كان الفرد اكثر انتقادا لغيره كان الزدواج فيه اشد وقد نجد نماذج كثيرة في مجتمعاتنا لهذا الطراز من الامراء الذين دأبوا على انتقاد كل شيء يرونه .. فهم ينتقدون كل انسان كما ينتقدون كل عمل تقوم به الحكومة او اية مؤسسة اخرى انهم يريدون من الناس ان يكونوا ملائكة معصومين من الخطا وان تكون الدنيا جنة الفردوس .. مع العلم انهم في سلوكهم الواقعي لا يختلفون عن غيرهم من الناس وربما كانوا اشد من غيرهم انحرافا عن المثل العليا التي ينادون بها في انتقاداتهم المتتابعة .

● الملاحظ انك حاولت تفسير المجتمع العراقي في ضوء فرضيتين احدهما ازدواج الشخصية والثانية صراع البداوة والحضارة ثم اضفت اليهما في الاونة الاخيرة فرضية ثالثة سميتها فرضية « التناقض الاجتماعي » فما هي هذه الفرضية ؟ .. وماذا تعني ؟

★ من طبيعة الحياة ان ليس فيها شيء ينفع الناس دون ان يحتوي على ما يضرهم في الوقت نفسه .. وقد اخطأ الطوباويون حتى تخيلوا حياة خالية من المشاكل او الشروع في حياة لا يمكن ان توجد على وجه هذه الارض او هي بالاحرى لا تنسجم مع طبيعة الانسان .

ومن طبيعة التغيير السريع انه لا يؤثر في جميع اجزاء الكيان الاجتماعي على درجة واحدة فكثيرا ما يكون هناك جزآن مترابطان ثم يحدث التغيير في احدهما دون ان يحدث في الاخر .. فيؤدي ذلك الى صراع او توتر او تناقض بينهما .. وهذا هو ما سميناه بالتناقض الاجتماعي . وانكر

بالواقع ظاهرا وقد يعطون غيرهم بنفس المبررات التي سمعوها من الواعظين .. غير انهم في حياتهم العملية يسرون حسب القيم المحلية التي تناقض التعاليم الدينية كسل المنافسة وهم يغفلون ذلك دون ان يغفلوا الى ما في سلوكهم من ازدواج عجيب .. هذا النوع من الازدواج كان موجودا في العهد العثماني وقد اعتاد عليه الناس على توالي القرون حتى صار فيهم عادة مألوفة .. اما الازدواج الحديث فهو قد نشأ فيهم من جراء التناقض الاجتماعي .. وهو اوسع انتشارا من الازدواج القديم واشد وضوحا وربما كان الكثير من الصابين به يغفلون اليه ولا يكتفون له ولقد اصبح الان منتشرا بين شتى فئات السكان ، لا سيما المتعلمين منهم وربما صرح القول ان كل متعلم

او شبه متعلم يكاد لا يخلو من ازدواج في شخصيته قليلا او كثيرا .. انه قد حفظ الانكار والمبادئ الحديثة وهو يتحمس لها ويكثر من ترديدها في مقالاته وخطاباته .. واذا جلس في مجلس عام نراه شديد الانتقاد لكل من يخالف تلك المبادئ - من حكام وراعيا - ولكنه يخالفها هو نفسه كل يوم في حياته العملية من حيث يدري او لا يدري . ووضح مثل يمكن ان نأتي به عن ازدواج الشخصية في المرحلة الراهنة هي ظاهرة (الوساطة) فنحن جميعا نشجب الوساطة في مقالاتنا وخطاباتها .. ونحن جميعا نعمل بها في حياتنا العملية فنوسط او تنوسط حسبما يقتضيه المقام .

● وهل الناس متساوون في درجة ازدواج شخصياتهم ؟ ..

★ ان الناس ليسوا كلهم على درجة واحدة في ازدواج شخصيتهم .. فمنهم من يشتد فيه الازدواج ومنهم

منه على اية حال .

● كثير من الناس لا يقولون بما أشتر .. فما العمل ؟؟

★ ليست المسألة بمسألة ان يرضى الناس او لا يرضون .. فالتطور الاجتماعي سائر في طريقه اردنا لم نرد .. ان القيم البدوية على ما فيها من محاسن رومانتكية رائسة .. تعزل علينا سبيل الحضارة .. خذ مثلا خلق النجدة والشهامة والذخالة والضيافة فانها .. لا تنسجم مع مبادئ الحضارة الجديدة التي تقوم على اساس المبدأ القتال « الشخص المناسب في المكان المناسب » فانت اذا اتبعت القيم البدوية في اختيار الأشخاص للأجهزة الحضرية التي تريد انشاءها فسدت تلك الأجهزة حتما .. ان الحضارة تشبه الماكينة الدقيقة المعقدة .. حيث يجب ان يوضع كل جزء في مكانه حسبما ليس محددة لا يجوز ان يدخل فيها اي اعتبار غير اعتبار الكفاءة الذاتية .. وهذا يناقض طلبا ما اعتدنا عليه من قيم البداوة .. فهذا من جماعتي .. وهذا جاعني دخيلا .. وهذا له فضل علي .. وهذا اكلت زاده وعليه .. الخ ..

● الحضارة الحالية .. الا توجد فيها

ملاحح سلبية ؟ مهل بالإمكان تحديدها؟
★ حين نقول ان نسير في سبيل الحضارة فلا نعني بذلك ان الحضارة خالية من الجوانب السلبية والمساوي .. فليس هناك في الدنيا شيء خالص من المساوي .. والحضارة في الواقع كثيرة المساوي وقد اشار اليها ابن خلدون في مقدمته الرائعة .. ولكننا مع ذلك يجب ان نسرى في هذا الطريق اذا اردنا الحياة : فالحياة لجديدة تقتضي منا ذلك فهو مضمار صاخب شديد يهلك من لا يجاريه ويمشي معه .. ولقد ذهب ذلك الزمان

الذي يستطيع المجتمع فيه ان يعتزل العالم ويمعيش في توتعته .. كما يشاء .. ان العالم اليوم أصبح صغيرا جدا ولا بد للذي يعيش فيه ان يسير مع الناس حيث يساروا والا كتب له الفناء .. ان الحياة ليست ان يعيش الانسان كما يريد .. بل ان يتكيف لها بمقدار جهده .

● كتبت مرة .. « من الممكن تشبيه المجتمع بشخصية الانسان البالغ .. اذ هي في حاضرها تتأثر بما حدث لها في ماضياها .. كيف ؟؟ »

★ هذا التأثير تد يكون لا شعوريا .. انها هو موجود على اي حال وهو قد يظهر بظهور العقدة النفسية التي تدفع الانسان نحو بعض الانعمال « الشخصية » اذ هو يفعلها مرغبا بتأثير حافظ لا ارادي يسيطر عليه .. اكاد اعتقد ان المجتمع لا يخطف عن الفرد في هذا .. فكثيرا ما تخلق الأحداث الماضية في المجتمع عقده كالعقدة النفسية حيث ترى الناس يندفعون ببعض الماديات والأفكار الموروثة اندفاعا لا شعوريا .. وقد يؤدي ذلك بهم الى المهلك بينما هم يحسبون انهم يحسنون صنعا .

● وماذا تقصد بـ « التتويم الاجتماعي » ؟؟

★ ان الانسان يخضع في حياته الاجتماعية لتتويم يشبه في بعض الوجوه « التتويم المغناطيسي » وهو ما يمكن ان نسميه بـ « التتويم الاجتماعي » فالمجتمع يسلط على الانسان منذ طفولته الباكرة ايحاء مكررا في مختلف شؤون العقائد والقيم والاعتبارات الاجتماعية .. وهو بذلك يضع تفكير الانسان في قوالب معينة يصعب الخروج منها .. وهذا هو الذي جعل الانسان الذي نشأ في بيئة معينة ينطبع تفكيره غالبا بما في

تلك البيئة من عقائد دينية وميول سياسية واتجاهات عاطفية وما اشبه فهو يظن انه اتخذ تلك العقائد والميول بارادته واختياره ولا يدري انه في الحقيقة صنعته بيئته الاجتماعية .. ولو انه نشأ في بيئة أخرى لكان تفكيره على نمط آخر .. ويصح ان اتول ان التتويم الاجتماعي يجعل كثيرا من الناس يرون الابيض اسود والاسود ابيض وهم يمتدنون اعتقادا جازما انهم يرون الحق الذي لا شك فيه ..

● وماذا عن الحساس الجمعي ؟؟

★ تتميز المرحلة الراهنة بما نسميه « بالحساس الجمعي » وهذا الحساس كأي شيء آخر في الوجود له محاسنه وله مساوئه .. فهو من جهة يشير للجماهير ويثبت فيهم نزعة الفداء والتضحية ولكنه من الجهة الأخرى يجب عنهم النظرة الموضوعية ويجعل مهمة الباحث المحايد بينهم عسيرة .. فالحساس لا يكفي وحده لنجاح الشعوب في مضمار الحياة الحديثة ، بل لا بد من ان تتوافق معه من الجانب الآخر دقة النظر وموضوعيته .. ويمكن تشبيه المجتمع الناجح في العصر الحديث .. بالجيش الذي يدخل معركة حاسمة .. اذ هو يجب ان تتوازن فيه حكمة القيادة مع حساس الجنود .. فالجيش لا يستطيع ان ينتصر في المعركة اذا كان جنوده لا يتحسون عند القتال وكذلك لا يستطيع ان ينتصر اذا كانت القيادة فيه يسيطر على احكامها الحساس .. نحو الهزيمة المحتومة وهو يحسب انه سائر بهم نحو النصر الاكيد .. اننا في هذه المرحلة المتأزمة من تاريخنا .. في اشد الحاجة الى التوازن بين دافع الحساس ودافع

الموضوعية في انفسنا .. فليس من الخير ان يسيطر الحساس على تفكيرنا دوما .. كما انه ليس من الخير ان نخلو قلوبنا من الحساس .

تناولت جمال الدين الافغاني وحللت جوانب حياته .. ونذكرت ان له صلة لا يستهان بها ببعض احداث العراق .. فكيف ترى هذا الرجل ؟ ..

★ الافغاني .. يعد من رجال التاريخ الذين يكتنفهم الغموض ، فتفاصيل نشاطه وكثير من اعماله وجولاته لا تزال تحتوي على بعض الاسرار وما يزيد في غموضه .. ان معظم الذين كتبوا في سيرته اتخذوا الاسلوب الخطابي ... فهم في كتاباتهم يصورونه كأنه مخلوق من طينة تختلف عن طينة البشر .. اذ هو في رأيهم رجل مثالي .. وبعد الدراسة التي قمت بها في هذا الموضوع اميل الى الرأي الذي يقول بان الافغاني كان ايرانيا ولم يكن افغانيا استنادا الى قرائن شتى موجودة عندي .

● قلت عنه .. بأنه كان ماسونيا .. كيف ؟ ..

★ في اواخر ايار من عام ١٨٧٥ قدم الافغاني طلبا الى المحفل الماسوني في القاهرة يطلب فيه قبوله عضوا في المحفل ولا تزال ورة الطلب محفوظة في مكتبة البرلمان الايراني وهي مكتوبة بخط يد الافغاني نفسه .. وقد تم قبوله في المحفل الماسوني ثم اخذ يرتقي في مراتب الماسونية سريعا حيث نجده في اوائل عام ١٨٧٨ يصل الى مرتبة الرئاسة .. وقد ضم المحفل الماسوني ايضا كثيرا من المثقفين والكتاب منهم يعقوب بن صنوع وسعد زغلول واديب اسحق ومحمد عبده والويلحي .. وآخرون ..

● وما موقفك من المرأة ؟ ..

★ قضية المرأة هي جزء من الحضارة الجديدة التي لا يحصى منها .. فالمرأة تستير عننا في نفس الطريق

التي سارت في البلاد التي سبقتنا في الحضارة .. ويجب ان لا ننسى في هذا الصدد ان هناك بعض العلماء من يتشام تجاه الحضارة الجديدة كلها .. بما فيها المرأة باعتبار انها حضارة سائرة في سبيل التردى ونهايتها محتومة عاجلا او اجلا .

● والظاهر الجديدة في الشباب كالبهية مثلا ؟ ..

★ لا اهمية لها اليوم .. لانها محدودة النطاق .. ولا يمكن ان تزيد عن حد معين .. وقد لاحظنا مثل هذه الظاهرة في جميع مراحل التاريخ عند تعدد الحضارة حيث يظهر بعض المستهترين الذين يريدون ان يعيشوا على هواهم ولكن مشكلتهم اليوم استغلت في البلاد الرأسمالية .. وهي كما قلنا لا اهمية لها .. لانها محدودة في نطاق معين لا تتعداه .

● كتبت : « ان الافراد ليسوا كلهم على درجة واحدة من حيث ثقافة الغلاف الذاتي الذي يحيط بمقولهم .. فمنهم من يكون غلافه ثخيناً جداً وهو الذي يمكن ان نطلق عليه

اصطلاح « الفطير » ومنهم من يكون على النقيض .. ويمكن ان نطلق عليه اصطلاح « الناصح » وأكثر الناس هم الذين يتفاوتون من حيث ثقافة غلافهم الذاتي .. فما هي مواصفات هذا « الفطير » ؟

★ الشخص « الفطير » امره عجيب .. انه معجب بنفسه الى الدرجة القصوى .. وهو متوثن بان الناس كلهم معجبون به ايضا .. واذا استحسنت شيئا ظن ان الناس جميعا لا بد ان يستحسنوه مثله .. وتراه يأتي بالثقة التافهة .. ويكون اول الضاحكين عليها .. وحين يضحك الناس معه مجاملة يعتقد ان الناس مانوا من الضحك .. وقد يؤدي ذلك به الى ان يعيد النكتة على

الناس مرة بعد مرة .. واذا تحدث هذا « الفطير » في مجلس اخذ يرنو بنظره خلسة نحو الحاضرين ليرى تأثير كلامه فيهم .. اما اذا التى كلمة في حفل عام او كتب مقالة في جريدة .. فانه يظل ينتباهي بما قال مدة طويلة ولا يكاد يلتقي بصديق له حتى يسأله عن الكلمة التي القاها وعمن عبقريتها التي لا تضاهي وقد يضطر الصديق الى مجاملته فيقول له ما يريد ان يقال وعند هذا ينبجج وجهه عن ابتسامة الفخر ثم يعطي في طريقه رافعا راسه نحو الاعالي .

واذا كان هذا « الفطير » شابا من طلاب الغرام ازدادت بشكته تعويضا .. فهو يحسب ان حسنه فاق حسن يوسف الصديق (ع) فاذا دخل رقعا شرقيا تخيل ان الراقصات وقرن في جبال غرامه او هن على وشك ان يتغن فيها .. وهو عند انتهاء الحفلة ريبا وقف في باب المرص متوقعا ان تدعوه احدى الراقصات الى بيتها لشدة ما تشعر به نحوه من لوعة الهيام .

والواقع .. ان كل انسان مهما كان ناضجا لا يمكن ان يخلو من بعض « الفطارة » قليلا او كثيرا . الاجتماعية الرقيقة التي يطبع اليها موجود في البشر .. كما لا توجد فيهم اية سفة اخرى كالبهة .. ومن الجدير بالذكر ان « الفطارة » ذات نفع كبير لصاحبها لانها تمنحه المنزلة الاجتماعية الرفيعة التي يطمح اليها ولو عن طريق الاوهام فلولاً « الفطارة » لادرك الانسان قدر نفسه وقوته اعماله كما هي على حقيقتها .. وهذا امر يصعب على الانسان تحمله .. ان الاوهام ضرورية للانسان .. ولولاها لما احب الانسان الحياة ..

● من يقرأ كتابك اسطورة الادب الرفيع يجد موقفك من الشعر موقف المعادي له .. وقد جرت بينك وبين

كثير من الأدباء معارك أدبية طاحنة .. كيف تفسر ذلك ؟؟

★ برأيي أن من أسباب التمسك التي حلت بنا في حزيران عام ١٩٦٧ ولعنا المفرط بالشعر .. إذ أننا أكثر الأمم ولعا بالشعر وانهماكاً فيه .. أن لم تكن أكثرهم على الإطلاق وهذا عيب من عيوبنا الاجتماعية أو هو بالأحرى من مظاهر التناثر الاجتماعي فبنا .. فنحن نريد أن نسري في مضمار الحضارة الحديثة ولكننا في الوقت نفسه نصر على المحافظة على تراثنا الشعري الذي هو على طرفي نقيض مع نظم الحضارة ومقتضياتها ..

ومن خصائص التفكير الشعري .. أن أصحابه إذا انتصروا في حرب نسبوا سبب انتصارهم إلى أنفسهم وما أبدوا في الحرب من بسالة وتوضيحية وأما إذا انكسروا غزوا هزيمتهم إلى سبب خارج عنهم كالاستعمار أو الخونة .. ولا يخفى أن هذا النوع من التفكير يجعل أصحابه بعيدين عن تفهم الواقع كما هو والاستفادة من دروسه .

لقد تغيرت طبيعة الحرب في العصر الحديث تغيراً أساسياً .. إذ هي أصبحت تعتمد على العلم والتقنية أكثر من اعتمادها على الفخار والحماس .. أن رجلاً شجاعاً من طراز عنتره العباسي .. لم يبق له تلك الأهمية التي كانت له في الحروب القديمة .. فلقد حل محله الحندي المردبي الذي يحمل بيده أحدث الأسلحة النارية ومن ورائه المصانع والعلما يجهزونهم كل يوم بشيء جديد .. وكذلك حل محل الرجز «أو الهوسمة العشائرية» خطة يعمل على وضعها الخبراء العسكريون عدة سنوات وفق أحدث التطورات في فن السلاح والحرب ، ولذلك أكرر أننا في هذه المرحلة المتأزمة من تاريخنا في أشد الحاجة إلى التوازن بين دافع الحساس ودافع

الموضوعية في انفسنا فليس من الخير أن يسيطر الحساس على تفكيرنا دوماً كما أنه ليس من الخير أن تخلو قلوبنا من الحساس ..

● **وما علاقة الأدب بعلم الاجتماع ؟؟**
★ أن علم الاجتماع يدرس الأدب والتاريخ والاقتصاد والسياسة والدين والفن وما أشبه وقد ثار من جراء ذلك جدال طويل بين الباحثين .. أيجوز لعلم الاجتماع أن يتدخل في مواضيع هي من اختصاص غيره؟ ومن التهم التي وجهت إلى علم الاجتماع أنه أصبح كدائرة المعارف .. إذ هو يتدخل في كل فرع من فروع المعرفة ويبدى رأيه فيها .. وكان جواب علماء الاجتماع على هذه التهمة أن عليهم لا يدرس فروع المعرفة المختلفة إلا من الناحية الاجتماعية ، فهو حين يدرس حادثة تاريخية مثلاً .. لا يهتم كيف توصل المؤرخون إلى تحقيق تلك الحادثة

أو إلى استقصاء القرائن والدلائل فيها أنه يتركهم وشأنهم في اتباع منهجهم الخاص بهم .. ولكنه يأتي أخيراً غياخذ النتيجة التي توصلوا إليها ويستعين بها في دراسة المجتمع البشري بوجه عام .. ومعنى هذا أن علم الاجتماع لا يشارك المختصين في بحثهم المنهجية .. أنها يأخذ ما يصلون إليه من نتائج .. فيضعها في بودقته الخاصة ليصهرها ويستخرج منها النظريات التي قد تساعد الإنسان على فهم ما يحيط به من ظواهر اجتماعية معقدة .

ان المجتمع البشري مؤلف من جوانب تاريخية وفنية وسياسية واقتصادية ودينية وغيرها .. وإذا لم يدرس علم الاجتماع هذه الجوانب .. فماذا يدرس إذن ؟

● **وأخيراً ؟؟**

★ تحياتي لقراء مجلة البيان الغراء .
عبد البطاط

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhril.com

البقاوة

بلغت والمجلة ماثمة للطبع نبأ وفاة الأديب

الشاعر الكويتي الفاضل السيد

حجي جاسم الحججي

يوم الاثنين الموافق ٢٢ تموز ١٩٧٤

رحم الله الفقيد الكريم رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته



حديث
المحقق العراقي
محمد
جبار
المعبد

حول تحقيق التراث العربي ودوره في حاضرنا والمستقبل

(اعداد:
محمد صالح
عبدالرضا



وزارة الاعلام في شباط الماضي ..
كما درس (المعبد) نتاج اللغوي ابي
عمر الزاهد وآراءه اللغوية فسي
متطلبات دراسة الماجستير في اللغة
العربية ، التي انهاها بحصوله على
درجة الشرف الاولى ، العلم الماضي،
في جامعة بغداد .
وفي لقاء مع الاستاذ المعبد ، جرى
هذا الحوار :

طيبة وجديدة في مجال تراثنا العربي،
والدراسة الادبية . وبالإضافة الى
انجازه عددا من دواوين الشعراء
العرب (عدي بن زيد العبادي
والمعلوي وطهمان بن عمرو الكلابي ،
وابراهيم بن هرمة والخريمي) . انجز
تحقيق كتاب « حساسة الظرفاء من
اشعار المحدثين والقدماء » للمعبد
لكاني ، وقد صدر جزؤه الاول عن

تستأثر حركة بحث التراث العربي
باهتمام رجال ينذرون انفسهم لخدمة
مجد الامة المنذر في المخطوطات
والمظان التي يملوها الغبار ، وتغور
في ذاكرة الزمن ، ومن اولئك الرجال
الجادين المحقق الثبت الاستاذ محمد
جبار المعبد ... مساهم متواصل في
رغد المكتبة العربية بها يهيء للباحث
والقارئ فرصة الاطلاع على جهود

● ما هو رايك بحركة تحقيق التراث العربي المعاصرة في وطننا العربي ؟

★ حركة التحقيق المعاصرة ، اذا ما اردنا قياسها بما حقق ونشر قبل ربع قرن او اكثر ، اثرت المكتبة العربية وتقدمت الكثير من الكتب التي كانت بعيدة عن متناول الباحثين والدارسين ، والكثير منها كان يعد مما فقد . اما اذا اردنا قياسها بما هو موجود من المخطوطات العربية التي لم تر النور في مختلف مكتبات العالم ، فانا نجد انفسنا متخللين في هذا الميدان ، ونحتاج الى وقت طويل جدا لننشر المهم والاصيل من هذا التراث . وهذا يعني حرمان اكثر من جيل من الاجيال القادمة من الاطلاع على هذا التراث والكشف عن الجوانب المضيئة من ثقافتنا العربية .

● ما هي مقترحاتك ازاء دوائر تحقيق التراث العربية الاكاديمية وغير الاكاديمية ؟ وما هو رايك بجهودها العلمية ؟

★ ليست هناك دائرة اكااديمية عربية لتحقيق التراث ، والمجامع العلمية العربية الثلاثة لم تؤسس لتحقيق التراث ونشره ، وانما من بعض مهامها العناية بهذا التراث ونشر النماذج الجيدة منه . ومجمع اللغة العربية يبدشئ انشط هذه المجامع واكثرها نشرا وتحقيقا ، ومطبوعاته لها مكانة علمية كبيرة . اما مجمعا القاهرة وبغداد فليس لهما مثل هذا النشاط .

اما الدوائر غير الاكاديمية فأخص منها وزارة الثقافة والاعلام ووزارة الاوقاف في بعض الدول العربية كالعراق ومصر وسوريا والكويت ، وهذه الوزارات انشط الدوائر الرسمية في نشر التراث .

وهناك دائرة ثالثة بين هاتين الدائرتين ، وهي كلية الاداب في

جامعاتنا العربية ، وليست مهمتها نشر التراث وانما تقوم بتكليف طلبة الدراسات العليا تحقيق مخطوط يتعلق بالموضوع الذي اخص به الطالب . الا ان هذه المخطوطات المحققة اصبحت من الكتب بحيث لم تجد مجالا للنشر . ولو نهضت المجامع العلمية الثلاثة ، وأخص مجمعي بغداد والقاهرة ، بسبب نشر بعض هذه المخطوطات التي تتعلق بموضوعاتها ببهمة (الجمع) لكان في ذلك وناء لبعض ما اسست هذه المجامع اللغوية من اجله .

● ما هي السمات الحقيقية للمحقق الجيد ، وما هي ادواته التي يجب ان يمتلكها كي يكون محققا فاعلا بالضرورة ؟

★ التراث امانة في اعناق من وصل اليهم ، والمحقق الصق من غيره بهذا التراث . فعليه لا يبدأ ان يتخطى بالصق والفرة عليه ، يؤديه كما وصل اليه . وهذا يقتضي منه التنبه والنسب والحذر والاستعداد التام للقيام بهذه المهمة .

والادوات التي يجب ان يمتلكها المحقق جانب من هذا الاستعداد ، فلا بد ان يتهيأ للموضوع الذي يروم تحقيقه ، سواء اكان شعرا ام لغة ام تاريخا ام فلسفة ... ومن النادر ان تجد محققا يقدم على تحقيق ما تقع عليه عيناه من مخطوطات في شتى الفنون ، فان مثل هذا الانعدام مخاطرة تسيء الى التراث .

من جوانب هذا الاستعداد معرفته التامة بفهارس المخطوطات التي ترشد الى مكان حفظ المخطوطات العربية في المكتبات العامة والخاصة ، في الشرق والغرب ، والا فان مجرد عشور محقق على مخطوط مصادفة في مكتبة من المكتبات لا يعني عدم وجود نسخ

اخرى منه في امكان اخرى .

كما لا ننسى الخبرة بقرأة المخطوطات ، ومعرفة الخطوط ، مع اطلاع كاف على اللغة العربية وفقها ، اذ هو السلاح الرئيسي الذي يتسلح به ، لانه يقوم بتحقيق نص عربي . والمستشرقون الغربيون مع تطبيقهم قواعد التحقيق ومعرفتهم اصوله جاءت جل تحقيقاتهم مملوءة بالتصحيح والتحريف لجهلهم اللغة العربية وعدم تمكنهم منها .

● يعتقد بعضهم ان عملية التحقيق تكنيكية تخلو من الادباع ، وهي ليست صعبة كما يتصور المحققون ، فما تعليقك على ذلك ؟

★ يعتقد هذا الاعتقاد من لا صلة له بالتحقيق ، ومن لم يعتمد في دراساته واباحته على مخطوط من مخطوطاتنا التي كتبت قبل مئات السنين ... ويعتقد من لم يمان قراءة هذه المخطوطات التي تحتاج الى خبرة ودراية في خطوطها ومادتها ، والكثير منها اشبه بالطلاسم والرموز ، يثق المحقق عند سطر من سطورها ، بل احيانا عند لفظة من الفاظها اياها وليالي حتى تستقيم له ، ولعلي لا ابالغ اذا قلت ان عناء مؤلف الكتاب يهون الى عناء محققة .

● بم تعامل نفور بعض شبابنا من التراث العربي ؟ وما هو موقفك من ذلك ، لا سيما ان البناء الجديد لا يستطيع ان يكون متينا ما لم يكن مستندا الى الاساس القديم الذي هو نقطة البداية نحو الجديد ؟

★ سيراتنا في الثقافة العربية يمتد بين العصر الجاهلي واولئل عصر النهضة العربية ، فهو ميراث يشمل فترات زمنية طويلة في شتى مناحي الحضارة ... وما وصل الينا من هذا الميراث كثير جدا لا يمكن تحقيقه ونشره في فترة زمنية قصيرة . والا هم من هذا

« المداخل » و « جزء في الحديث »
الا انه ظل مغبوراً لم يكتب عنه دراسة
جديدة معاصرة ، فاهمية الدراسة التي
قدمتها لابي استطعت ان ارسوم صورة
قريبة لابي عمر ، فاستقصيت اخباره
وآثاره ومنهجه اللغوي ومكانته بين
علماء اللغة في القرن الرابع .

وما وصل اليها من كتبه المطبوعة
والخطوط عرفنا مدى اهميته بين
علماء عصره ، ففسد ابتكر فن
« المداخل » ، وهو فن لغوي يقوم
على مبدأ تسلسل الالفاظ ونظمها
برابط من المعاني ، فنفسر الكلمة
بكلمة ثانية ، والثانية بثالثة وهكذا .
كما كان مبتكراً في كتابه « المشترا » ،
وهو ايراد عشرة الفاظ مختلفة في
حروفها — وبعضها متفق في جميع
الحروف — لكنها تشترك جميعاً في
الحرف الاخير ، وتعتبر هذه الالفاظ
العشرة عن معان مختلفة غريبة .

وكان يظن ان ابا عمر الزاهد درس
على ثعلب وحده ، وقد كشفت ان
المبرد كان الشيخ الثاني بعد ثعلب
لابي عمر ، وكان له تأثير كبير على
آرائه اللغوية ، حتى اننا نجده
ينكر على ثعلب كثيراً من آرائه ويرد
عليه في كتبه ويستترك .

وبعض كتب النحو تصوره لنا
نحوياً ، لكن هذه الدراسة اثبتت
ان ابا عمر كان لغوياً ليست له آراء
في النحو ، بل لم يجد له كتاباً
واحداً في هذا الجانب .

كما استطعت ان اتقي عنه كتاباً
ظلت مخطوطته تحمل اسم ابي عمر
قراءة ثمانية قرون ، وهو كتاب
« العسل والنحل » . ولم اكنف بنفيه
عنه ، وانما توصلت مستقداً الى
النصوص ان الكتاب لابي حنيفة
الدينوري صاحب كتاب النبات ، وقد
حققته وسينشر في بغداد هذا
العام .



فجمع هذا المتفرق من الاشعار في
مجموعات شعرية يساعد الباحثين
على دراسة هؤلاء الشعراء ، على ان
يلتزم المحقق — او الجالغ — منهاجاً
سليماً في عملية التحقيق والجمع ،
ولا فقدت هذه العملية اساسها
العلمي ، كما حصل في الكثير مما جمع
من اشعار الشعراء .

لقد ساهمت في جمع وتحقيق
اشعار ستة من الشعراء الجاهليين
والأمويين والعباسيين ، كما حققت
مجموعة شعرية ضخمة هي « حياصة
الزاهد » . ولكن دراستي ابا عمر
الزاهد اللغوي جعلتني اهتم بكتب
هذا الرجل ، فحققت له كتابين هما :
« يوم وليلة في اللغة والغريب »
و « القصص والمبدود » ، كما حققت
كتاب : « العسل والنحل » لابي حنيفة
الدينوري صاحب كتاب « النبات » ،
وهو مما نسب الى ابي عمر .

● ما هي خلاصة النتائج التي كشفت
عنها في دراستك لابي عمر الزاهد ؟
وهل تشكل تلك النتائج اهمية تاريخية
بالنسبة لتراث ذلك الرجل في
نظرك ؟

● ابو عمر الزاهد ، محمد بن عبد
الواحد ، لغوي من رجال القرن
الرابع الهجري ، قرا على اشهر
شيوخ عصره ، ثعلب والمبرد . وعلى
الرغم من ان الرجل نشر له كتابان :

اننا لم ننته حتى الآن من حصر
ومعصرة ما في المكتبات الخاصة
والعامة في مختلف انحاء العالم ...
عمله لا بد من مضاعفة الجهود
لاخراج ونشر اكبر عدد ممكن من هذا
التراث ، وهذا لا يتم الا ببث الوعي
التراثي لدى اجيالنا والاعمال
القادمة . والتفوق الذي تذكره عند
بعض شبابنا ليس تفوقاً واعياً ، وهو
عند قلة قليلة من شبابنا المتفتحين ،
مبعثه عدم قراءة هذا التراث قراءة
واعية ، يضاف اليه هذا الفاصل
الزمني بين هذا الجيل وبين تراثنا ،
مما يشعره بتخلف هذا التراث
— خصوصاً اذا ما قرا النماذج
الرديئة — عن ركب الحضارة
العالمية ، ناسين ان حضارة العرب
احدى اللبائن التي ثابت عليها
الحضارة المعاصرة .

الواقع ان نشر النماذج الجيدة من
تراثنا العلمي والادبي والفلسفي
واللغوي والجغرافي ووضعها بين
ايدي هؤلاء الشباب يزيل هذا التفوق .
وتقوم مجلة « المورد » التي تصدرها
وزارة الاعلام العراقية بهذا الدور ،
وهناك مجلات تراثية اخرى تقسم
دراسات وتوصفا جيدة من تراثنا
الا انها بعيدة عن ايدي هؤلاء الشباب
لصدورها عن دوائر اكااديمية .

● لوحد انك تهتم فيما حققت من كتب
بجمع شعر شاعر او تحقيقه ، فهل
في التية الاتجاه الى تحقق نصوص
نثرية او لغوية او رسائل ادبية ؟

● الشعر ، كما قيل ، ديوان العرب ،
وهو المعبر الحقيقي عن كثير من
الجوانب الخفية في الحياة العربية .

وقد برز خلال تاريخنا الطويل شعراء
كثيرون ، الا ان اشعارهم فقدت ولم
يسلم منها الا القليل القليل ، وما
فقد احتفظت ببعضه كتب الادب
والتاريخ والحجاسات وغيرها ...

— « ليننا ..
افكر بك .. يا ليننا
وصورتك تبني حولي قلعة هي من المناعة
بحيث لا يقوى عليها
وعلى الجدار المرصع بالتحجيم ، الذي احطنتي به ،
لا فورة الفيسوم ،
ولا لزوجة الأمطار ...

ايا خاتنة الصمت المطبق !! — ●
وبمناسبة حديث الشعر ، لا بد من تسجيل
ملاحظة هامة ، بتبينها كل مهتم بأدب الغرب : وخاصة:
الادب الفرنسي المعاصر — وهي تتعلق بعودة الاهتمام
الجدي بنشر الشعر وعقد العديد من المهرجانات
المحتفية بالشعراء ، ورصد الجوائز الرفيعة القيمة
للنتاج الشعري الجديد . حتى يمكن القول
الآن بأن ثمة فيضا من الشعر بات يستأثر باهتمام
الحركة الادبية في فرنسا ، وسوق النشر في
أوروبا عموما !!

وهذه ظاهرة فكرية تستحق ، بل تستوجب ، الدراسة
والتأمل والتحصيل من قبل نقاد الادب عندنا .
● كلمة خوف صاح بها طلل في السادسة ، حينما رأى
قرص الشمس يغرق ببطء وراء الامواج المتلاطمة :
— « .. لا بأس ، ولكن .. شرط الا ناكلها
الآن !! »

يورد أحد الكتاب هذه الكلمة ، ليشير ، من بعد ،
الى أن شموسا ، كثيرة تشرق في آفاق النفس البشرية
.. لتسارع بالغياب بلا رجوع ...
● للشاعر السويدي (جونسار ايكولف) مجموعة
شعرية — ترجمت مؤخرا الى الفرنسية ، عنوانها
الرئيسي : (DIWANE — ديوان) ، والغرمي :
(حول الامر دمجيون) .. منها مقتطف شعري يقول :
— « ان كنت وحيدا ،

فايق على حالك ..
وستنتهي باكتساب

العديد من الرفاق !! » —

● تال النائد الفرنسي (كلود بونفوا) في مقدمة
استعراضه لكتابين صدرا اخيرا بشكل مذكرات
شخصية :

« حضور الكاتب لا بد منه في ما يكتب .. حتى ولو كانت
كتباته من أجل تحديد أبعاده ومساهماته بالنسبة لنفسه
وللغير . وهذه المساهمات التي تمكسها عباراته هي
بالذات طابعه المميز .

« الا ان لدى البعض ميلا قويا الى الكشف والتعريه ،



اللمحات الفالغنة .. المختلصة لك ،

قائي الكريم ، من مطالعات سريعة في صفح
غريبة فكرية جادة ، بعيدة عن نخرصات السياسة
ودجلها ، امدك بان تلقى بها كل شهر ، مع
اطلالة كل عدد من اعداد « البيان » .. هذه
الجديدة المتلاحقة بعد عددها القوي .. مقفرا
عن الاجاز الشدي الذي اتسمت به « لمحات »
هذا العدد الذي بين يديك ، على أمل ان
يكون « الصيد » في الاطلالة القادمة — بالن
الله — من الكثرة بعثت بلكرنا بمقولة شاعرنا
القديم :

تكاثر القباء على جرائش

فلا يدري جرائش ما يصيد ..

هذه

● الشاعر الفرنسي : ميشال ليريس ، يترك نفسه على
سجتيته في نظم شعره .. فلا يلتزم بأي تقسيم في
المقاطع الصوتية .. معتبرا الابتاع الوحيد في أي شعر ،
هو ايقاع العبارات المنبثقة من فكر الشاعر وأحاسيسه
الطبيعية . ونتيجة لذلك ، لم يلجأ (ليريس) ، في ما نشر
من قصائد ، الى « تصنيع » نظمه — اذا صح
التعبير — بل ترك آلياته الشعرية تسول أو تعصر
حسب الصور والمعاني المتواردة عنو الخاطر ..
ولسان حاله يقول : « .. انها اكتب لاجل ان احيا
حياتي بشكل اكمل ! .. » ... كما يقول مطلع احدى
قصائده :



يوميات عائذ الحل سدوم

غير
منسوخ

« ما جئت لأغني .. لَأُغْنِيهِ
لقد أنفقت أيامي أشدُّ أوتاري
وأرجيها » — طاغور —
« من قرآن الاغاني »

لى نبذ الخيال نهائيا او مؤقتا ، من أجل تسليط
نوء — بالاعتراف الهادئ والتحليل الدقيق —
ى انفعالاتهم العاطفية وفكرياتهم وصعوبات
بشهم . والخطة المرسومة عندهم للكتابة متدبجة
سار حياتهم اليومية ، من وجهتي النظر : الفنية
لانسائية » .

ثم يعرض الكتابين المشار اليهما ، فيلاحظ ان صاحب
كتاب الاول — وهو : روجيه فريني — ينشر على
اس مذكرات شخصية وخواطر ، كتبها في فترات
نية متباعدة ، بأسلوب العودة الى الذات
لالتصاق بالنفس .. بينما يسلك صاحب الكتاب
اني — وهو : لوي كلالرت — سبيل العنف
لقسوة في عرضه لجبايا نفسه .. لكنهما القلم
سده مبنع يشرح به حنايا قلبه المغم
الم !!

والمكرات الذاتية ، والخواطر الشخصية ،
تزال مادة خصبة للعديد من الكتب الادبية
سادرة في الغرب ، تستهوي القارئ والباحث
ن السواء .. نظرا لما تقدمه لكليهما من تجارب
يمة ، وحقائق حياتية تكشف الكثير ، وترمز
، الاكثر ..

من خواطر (روجيه فريني) قوله :
— « احيانا ، يبدو لي العالم الذي اعيش فيه خيرا ،
جز عن فهمه .. والمخلوقات فيه نائية او كائنها
ية عن هذا الكون . فأحدث نفسي : لملم ينامون ،
تراني بالاحرى حالما ؟! .. بينما واقع الحال هو انه
تجمني بهم يقظة واحدة .. فبنام كل منا او يكون
يتغلا في نفس الوقت الذي يمي به الغمر او يحلو
الهجوع ! .. » .

(كانت مجلة (الاحداث الادبية : "Les Nouvelles
Littéraires") نسبية قد خصصت لهذا العام (١٩٧٤) جائزتين
تين كبيرين : للشعر وللرواية .. بدأت في الاعلان
با في أعدادها الاسبوعية الصادرة منذ شهر شباط
١٩ . وفي شهر حزيران ، أعلنت النتائج التي أسفرت
فوز شخصية نسائية بجائزة الشعر ، وفوز
، بجائزة الرواية : نسمة بالنساوي في الحياة ،
ى سعيد الفن والفكر ؟! قيمة الجائزة الواحدة
اليا — هي : خمسون الف فرنك فرنسي جديد — اي
حادل الثلاثة آلاف دينار كويتي !! — .. ومعنويا :
ن الفضل يعرفه ذووه !..!

... والى لقاء قريب ،

- ١ -

ما زال في حلقي غبار ،
وعلى فمي بقع التقاويم الهجينة ..
الليل يقي تحت نافذتي ، يفتصف النهار
أمشي ، ولا أمشي
كان الارض تصغر تستحيل الى حذاء .

- ٢ -

هذي المدينة كيف تنغو ..
تستعير نعاسها الابدي من أي العصور ..؟
تشتق للفقراء أسماء غريبة
لا الموت يعرفها ولا الجوع المعجوز ..
والخوف يفترس الرؤى الخضراء ..
.. أنفاق مهدمة .. زجاج ههنا كل الميون .

- ٣ -

رسموا خريطة أرضها ،
من روث أحصنة الفزاة
وبخوذة رسموا الاله
سفحوا بكارتها ومادت تحت احذية الزناة
تلد الارقة والبغايا ..
وتجوع كي توفي النذور .

- ٤ -

الناس فيها يولدون ،
.. وفي مهودهم القبور
يتقاسمون الله والصمت المقيم
ياما تنادوا للصلاة وهم سكارى ،
ياما زنوا باليتين ..
وتوضأوا بدمائهم .. صلوا لسيدة المواعظ :
.. كن سواك

- ٥ -

لو كنت قبل اليوم أعرف ما النذور ..
لنذرت رأسي كي أعود ..
لكن .. الى أي المدائن كنت أحلم بالرحيل ؟؟
- اني هنا ..

أبتاع للغرباء قنديلا وسقفا
أبتاع للشمرء جلجلة
وللفقراء سيفا
أبتاع حزنا ليس تعرفه المراثي ..
حزن السنابل حين تسقط وحدها ..
من غير منجل ..
وأدور في كل الشوارع عاريا
الشمس تتبني كأملة حزينة ..
وتلعب من دار لدار ..
تسكي على رب ترجل

- ٦ -

يا ليتها تجتازنا هذي النجوم
ما أعاد يجدينا المطر

- ٧ -

فرغت خوابيها ..
وها هي تلعب الجردان فيها
ونسأؤها يعضن من سغب
أجنثن .. لم تبصر سدوم ،
عند الصباح سوى الخرائب والدماء
.. وروث أحصنة الفزاة

- ٨ -

لست الشريد ،
ولست وحدك من تعيش بلا زمن ،
كل المدائن في بلادك شاردات ،
والرغيف هو الوطن ..

الزواج غير السعيد

بين الكتاب والناشر



هل يمكن أن يغدو سعيداً

نحو طريقتي علمية للتنبؤ بالمستقبل التجاري للكتب وتبل نشرها
كيف تكون أوهام الأديب وتخيلاته ضرورية لنجاح كتاباته

~~~~~

بمقام تحرير ..

جون فسر ياسرافهد

~~~~~

كبار الناشرين طريقة شبه علمية
للتنبؤ مقدماً بصورة المستقبل التجاري
والمردود المادي المتوقع لأي كتاب قبل
نشره بادنى درجة من المجازفة .
« المترجم »



مقترح قادراً بعد نشره على جذب
القراء واقتحام أسواق السوق
التجاري بنجاح وتحقيق أرباح مادية
تكفي لتبرير مخاطرة الناشر بتكبد
نفقات تمويل الكتاب ودفع السلفة
المالية للمؤلف . وقد اكتشف أحد

العلاقة بين الناشر والمؤلف كانت
ولا تزال تثير الجدل والنقاش في
الأساطير الأدبية والصحفية .
والمشكلة التقليدية التي تواجه الناشر
غالباً تتجلى في مدى قدرته على
الحكم سلفاً بما إذا كان أي كتاب

موجزة عما تبقى منه وكثيراً ما لا يكون
في جميعهم أكثر من فكرة تطوف في
رؤوسهم ، أو رأي مسجل على الورق .
بل أن غداة جأشني يوماً وقالت إنها
مندوبة عن معلق إذاعي وهو يمرض

العديد من المؤلفين أو وكلائهم أن
يطرقوا بابي للحصول على المال
اللازم لتمويل تأليف كتاب ما . وفي
العادة يكون بعض هؤلاء قد أنجز
تأليف فصلين من كتاب وخلصه

منذ بضع سنوات عندما كان عملي
الرئيسي تحرير الكتب ودفعها إلى
النشر بدأت أتساءل عما إذا كان من
الممكن أن نطبق طريقة علمية في عمل
تجاري غير علمي . ففي كل يوم اعتاد

الذهاب الى فلوريدا والاستلقاء على شاطئ البحر هناك والبقاء اسبوعين لاطلاق العنان لخياله وتذبح زناد فكره ثم يعود بعدها وفي حوزته خلاصة عن كتاب ، وذلك اذا كان هناك ناشر مستعدا ان يدفع له سلفا (١٠٠٠) دولار ! وفي مثل هذه الاحوال التي تفتقر الى الضمان فان الناشر لا يخطر بتقديم اكثر من مبلغ يتراوح بين (٥٠٠) و « بضعة آلاف » دولار ، يسترده من ارباح الكتاب بعد طبعه وتوزيعه فيها اذا بقي رواجا لدى الجمهور وامكن بيعه بأعداد وفيرة . ان قرار قبول المجازفة بتقديم التمويل اللززم يعتمد على أساس الصدس او ما يسمى الناشر « الحكم الصحفي » اذ يقوم الناشر بالقاء نظرة على ما سجله المؤلف ويراجع مبيعات كتبه السابقة ان وجدت ، ويسأل عما اذا كان الجمهور يمكن ان يهتم بالموضوع الذي يعرضه الكتاب الجديد ، ويجري تقويا لمواهب الكاتب وشخصيته ثم يأخذ نفسا عميقا ويقرر المبلغ الذي يستطيع ان يقام به في المشروع الجديد . واذا أخطأ حدس الناشر فان مؤسسته تستبد خسارة . وحتى افضل الناشرين كثيرا ما يخطئون ويخفقون في اصدار الحكم الصحفي السليم مما يؤدي الى تقليص ارباحهم . ولكن من جهة أخرى فان المبالغة في الدقة والحذر تقود بدورها الى عواقب مماثلة . وانكر شخصا انني كنت قد رفضت عروضاً لخمسة كتب بسبب ما اعتبرته مغالاة منهم في طلب الاجور فكان ان درت كتبهم فيها بعد اموالاً طائلة على بعض مؤسسات النشر المانحة لمؤسستي لذلك فغاني كغفري من الشبان الناشرين شرعت ابحت عن دليل يساعدني على الحدس بأقل درجة

من المخاطرة بها اذا كان اي كتاب محتمل يمكن ان يلقى رواجاً في الاسواق ويدير ارباحاً مناسبة بعد نشره . قمت باجراء دراسة دقيقة على سجلات مائتي كاتب باحث عن صفات مشتركة تميز المجازفات الناجحة عن الفاشلة . فمرت على صفتين حاز عليهما جميع الكتاب المحققين وافتقر اليهما المؤلفون المخفقون وهما :

١ - احتياطي غير عادي من الطاقة والقدرة على الانتاج الوفير .
٢ - الذاتية المفرطة . الا انه تبين لي في ما بعد ان هذا الاكتشاف اضعف من ان يعد اكتشافاً ثورياً لان هناك عنصراً أساسياً لم يظهر في الدراسة وهو **الموهبة** . ففي عالم الصحافة كثير من الكتاب الإذمءاء الذين اوتوا قدرة كبيرة على الإنتاج وذاتية مفرطة ومع ذلك فانهم يمجزون عن كتابة فترة واحدة وراقية ورفيعة المستوى لأنه تمسكواهم الموهبة .

ولنع ذلك فان الاكتشاف الجديد ينطوي على فوائد كبيرة النسبة الى الناشر فهو يساعد على بناء شراكة ناجحة بينه وبين الكاتب . وبعد ذلك تكون المهمة الرئيسية للناشر :

١ - ان يحث الكاتب على الاستثمار في الانتاج الوفير .
٢ - ان يرعى ذاتيته : لخاصة ويحفظها . فإذا كان المؤلف يحوز على حيوية دافعة كذلك التي ميزت كتاباً مشهورين امثال : تولستوي ، والاس ، وولف ، دكنز . الخ فانه سيظل يكتب وكأنه النار التي تتأجج اشتعالاً بينما يتوجب على الناشر ان ينشر ما يكتب لانكاء اللهب المشتعل بالوقود الضروري : المال . وبين كل حين وآخر قد يحتاج الى تقديم

النصح للكاتب حول احوال السوق التجاري وتنظيم مادة النشر ، كما يقوم بتنقيح وتنذيب بعض الكتابات التي لا لزوم لها وتنفكت عن طائفة المؤلف غير الحدودية . ولكن اذا كان الدافع الشخصي والفيزيولوجي عند الكاتب مفقوداً فان كل شيء سييسوء . فالكاتب مهنة شاقة لا يسع الا الاتقواء ان يستمروا فيها ، ابا الضعفاء الواهون فسرعان ما يكون ويملون فيسقطون . واذا جئنا الى الواجب الناشئ للنشر والمتعلق بتشجيع ذاتية المؤلف ، نجد ان الامر ليس بسهولة الواجب الاول . فهذا العمل يختلف مع اختلاف المؤلفين ويتخذ شكلاً خاصاً مع كل كاتب على حدة . ولكن كما هو الحال عند رعاية الطفل فان البداية يجب ان تتمثل بالحب والعطف والاحترام فاذا لم يكن الناشر يتحلى بنعمة الصبر وقادراً على تحمل تقلبات مزاج كاتبه فانه سيخفق في مهنته . وعليه ان يضع دائماً في ذهنه ان الانعلاص سيكون حليفه اذا وهنت ذاتية كاتبه وذوقه . فالذاتية هي البينوع الوحيد الذي ينهل منه المؤلف ويمتدح خلال الشهور الصعبة التي يجتمع خلالها الكليات والجبل واحدة بعد اخرى لتشكل مادة الكتاب المنتظر . وفي صباح كل يوم على هذا المؤلف ان يتنق نفسه مرة بعد اخرى ان الكتابة الكليات على الورق اهم شيء فسي الوجود وان آلاف الناس في كل مكان لن يصفوا الى ما سيقوله فحسب وانما سيدفعون ثمنه ايضاً ! وان ما يدور في خلدّه ويجول في ذهنه لم يسبق ان نطق به او كتب احد من منافسيه الكتاب بدءاً من هودر وانتهاء بهيمينجواي ! لذلك فان افادته الشخصية حول الحقيقة الابدائية يجب ان تسجل فوراً حتى لو جاع اطفاله

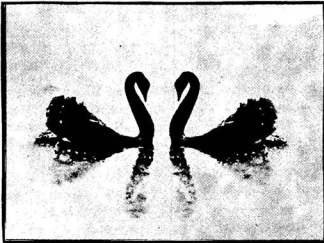
ورفعت زوجته عقيرتها بالاحتجاج !
 أن جنون الذاتية وحده يمكن أن يصدق
 مثل هذه الأوهام ويتحدى الواقع ،
 أما العائل فيعرف أن هناك أعدادا
 هائلة من الكتب تباع في الأسواق
 وأن قسما بسيطا فقط منها يقرأ
 ويراجع . وحتى هذا القسم كثيرا ما
 يتأثر باللامبالاة . الإنسان العوامي
 يعلم أيضا أن معظم الكتب هي
 كالخضراوات الطازجة المعرضة
 للفناء فسرعان ما تخلفها كتب أخرى
 حديثة تملأ رفوف المكتبات . لذلك
 فإن الظروف الموضوعية هي دائبا
 ضد الكاتب الذي يحاول
 أن يحتل صدر حلبة النشر ويستأثر
 بكل اهتمام جمهور القراء ، والتأليف
 كهنة يتصد بها كسب لقمة العيش
 وسد الرمق ليس عملا مضمونا
 ومردوده المادي غير ثابت . ومع ذلك
 فإذا كانت ذاتية الكاتب قوية بما
 فيه الكفاية فإن بوسعه أن يتجاهل
 هذه الحقائق فينكب على دفتره وهو
 واثق من أنه ليس كغيره من الناس
 وأن كتابه سينال حتما نصيب السبق !
 وهذا هو السبب الذي جعل ناشرا
 شهيرا طبقت شهرته : إلفاق وهو
 وليام سلون يعد عمله ضريبا من
 العلاج النفسي لأنه يهدف إلى إقناع
 الكاتب باستمرار أن عقيرته غدة
 وفريدة وأن الفصل الأخير في كتابه
 درة ثمينة تفتن الإلاب وتأخذ بجامع
 القلوب وأن العالم ينتظر صدور آخر
 كتاباته بفارغ الصبر ! وهكذا فنان
 الناشر يجب أن يقوم بدور الطبيب
 النفسي لأنه يفترض أن يبصر حقائق
 الحياة الأدبية أكثر مما يفعل الكاتب .
 وإذا كان من واجبه أن يطر هذا
 الكاتب على الدوام بوابل منثناء
 والمداينة بما يكفي لإتمام ممثل
 سينمائي شهير وأفعابه زهوا فنان
 من واجبه في الوقت نفسه ألا يسمح

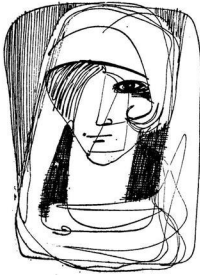
للمؤلف أن يشتط في ذاتيته إلى أكثر
 من الحدود المعتولة . عليه مثلا أن
 يصنف أوهام الكاتب وخيالاته فيحتمل
 ما هو مفيد منها ويلجم ما هو هدام .
 وقد قص علي أحد أصحاب دور النشر
 الكبرى مرة أنه عمل لمدة سنوات
 مع كاتبة قصصية ناجحة بدرجة كبيرة
 وخلال فترة معرفته بها لم تكن تتحدث
 إلا عن فكرة واحدة متسلطة : الطريقة
 الزرية التي تهمل بها من قبل
 زوجها وأطفالها وقرأتها ونشرتها
 وباتني كتبها والناس بصورة عامة .
 وفي الحقيقة كانت المؤلفة عجوزا
 شمساء بتمعرجة تعيش بطريقتها
 الخاصة ولا تقيم وزنا لحياة الآخرين
 ومصالحهم . ولكن أوهامها كانت
 ضرورية لعملها فجميع قصصها تعالج
 الموضوع نفسه : الحصر التعس
 لإمرأة في عالم ظالم وبما أن هذا
 المفهوم يلاقي صدى عند ملايين القراء
 الإناث فإن كتبها اجتاحت الأسواق
 وسجلت مبيعاتها أرقاما تياسية .
 ولو أتيت لهذه الكاتبة أن تواجه
 الحقيقة : فلربما عجزت بعدها عن

كتابة سطر واحد ! وعلى كل فنان
 ذاتية المؤلف لا تشكل المصدر الوحيد
 المحتمل للاحتكاك فللناشرين أيضا
 ذاتيتهم التي يمكن أن تجلب المتاعب .
 والخطر هنا يمكن أن الناشر قد
 يحاول عن وعي أو غير وعي أن يفرض
 آراءه الخاصة على الكاتب . وكثيرا
 ما يحدث ذلك عندما يكون الناشر
 مؤلفا غاشلا ، ففي هذه الحالة قد
 يبعد إلى التأثير في المؤلف حتى ينتج
 القصة التي أخفق هو في إنتاجها .
 وقد يكون الناشر دوغانيا (مستبدا
 براه) فيظن أنه يعرف بالضبط
 كيفية تأليف كل نوع من الكتب وأنه
 يتمتع بالقدرة على التخمين الصحيح ،
 دون أدنى خطأ ، بما يثير اهتمام
 جمهور القراء ويلبى قبولاً عنده .
 وهذا الضرب من الدوغانية يمكن أن
 نسميه مرض المهنة . ومن عواقبه
 الخطيرة أن الناشر قد يفقد بسبه
 العمل الكتابي الجيد والسوق
 التجاري على حد سواء .

عن كتاب :

WRITING IN AMERICA





0

قصة الانتصار العظيم على

دو-ري-سي

للكاتب اليهودي : ابراهيم كيشون
ترجمة : محمد عثمان

تعريف بالكاتب

ابراهيم كيشون كاتب يهودي من كتاب العبرية ، ولد في المجر وهاجر الى فلسطين المحتلة بعد حرب ١٩٤٨ حيث يعيش الان ويكتب لصحيفة « معارف » بصفة يومية .

وتتميز اعمال كيشون بالسخرية اللاذعة والنقد الجارح للمعتبة اليهودية التقليدية بشكل عام والاضاع الاخلاقيات الاجتماعية في فلسطين المحتلة بشكل خاص . وهو نسي قصصه لا يكتفي بعرض الموقف الساخر كنكتة تبعث على الضحك في حد ذاتها ، ولكنه يتعرض للازمات الاختلاية الحادة التي يعيشها ذلك المجتمع ، وذلك من خلال الحوار والمواقف الدرامية المحددة .

الموقف الساخر هو اطار للنقد المراد توجيهه بشكل مباشر لهذا المجتمع اليهودي الذي يدعون انه المجتمع الديمقراطي المثالي .

ولقد ترجمت كتابات كيشون « مقالات وقصص قصيرة » الى اكثر من سبع لغات .

« كل اليهود الهوة » مجلة تالها

شئور القدس روتشيد وكان

بالتأكيد يهدف من روالها الى اظهار

سلة القرابة بينهما ، والاسف لم تصل

اجابة البارون روتشيد .. البنا .

المهم انه في « اسرائيل » تظهر اثر

هذه الجيلة ومفراها فيما ينطق

بالاشياء التي تربط بين الالهة .

« الموسيقي مثلا » ، فنحن اليهود

لنا ولع بالموسيقى .

مكاد نحن بها ، نفخنا للجنون

نم نفخنا للجنون .. هذه الصجة

الابنية التي لا تنهي .

لبلة امس ذهبت الى غراشي مبكرا

وذلك لانني كنت مضطرا الى الاستيقاظ

مبكرا في اليوم التالي ، واعتقد ان

مسامي قد كلت بالنجاح الى حد

ما في الاستفراق غورا في النوم، ولكنني

استيقظت بعد حوالي الساعة

مزعوما ، فقد صرخ صوت اجش :

ونجاة ازدادت حدة الموسيقى عنديما فتحت النافذة في مسكن الدكتور برن باوم ، وأطل برأسه منها في شكل مهيب صائحا في صوت منمق واضح النبرات ؛ من يكون هذا الجاهل الذي وصف سيمفونية بيتهوفن السابعة بأنها مواء فقط ..

وخيم الصمت على المكان ولم يجرؤ احد على فتح فيه ، كان بيتهوفن يحلق في فناء المسكن ، وأنتاب السكان رجفة من جلالته الاسم الرهيب الذي كان له مفعول مخدر قوي على الجهاز العصبي .. وتراجعت أنا خطوتين للخلف مخفيا من النافذة مؤكدا عدم انتسابي لمثل هذه الشبهة الجاهلة ..

كانت الموسيقى ما زالت تنساب وتبلا فناء المسكن ، والدكتور برن باوم يتلذذ بانتصاره زمجرا ؛ أريد ان اعرف من هو هذا الامي الذي ينمت موسيقى بيتهوفن بأنها مواء فقط ؟ ..

وكانت الاجابة عبارة عن معمال وحشجة تصاعدت من كل مكان لتخفي الاحساس بالخلج ، حتى همس بائع اللحوم قائلا ؛ لقد كان رئيس مجلس الادارة ..

قال الدكتور برن باوم ؛ نهائي .. نهائي الغلبة لنا جميعا بحصولنا على مثل هذا الشخص كرئيس لمجلس الادارة .

ثم استدار للخلف واختفى داخل مسكنه ، تاركا خلفه سحابة ثقافية مثقلة بخلصة الفكر والفن تصوم حولنا .

وصاح مانفريد توسكانيني مدافعا عن نفسه ؛ لقد كنت احمق ، انتابني الغضب فلم استطع التعرف على سيمفونية بيتهوفن السابعة ..

وقاطعته اصوات غاضبة من كل اتجاه تصرخ ؛ هس . افسل فمك يا حمار ، لا نستطيع الانصات

وعلق الناجر اليهني الاصل ؛ مواء فقط ، افعل شيئا ما لمنع هذه الضجة ، يمشي بن غوريون ..

وعندما احس توسكانيني بحدة الموقف تمل في قلق ، فلم يكن من النوع المقاتل بالفطرة ما كان اختصر لرئاسة مجلس الادارة لانه يتجنب الخط حسن ، واسلوب رائع في كتابة الشكاوي والمذكرات ..

صاح توسكانيني هامسا ؛ الرجاء اقبل هذا المذيع ، ارجوك اقبل المذيع ..

ولم تؤثر كلماته في شيء ، فقد استمرت الموسيقى كما هي ، وزاد الصمت الذي خيم على الفناء من حدثها ، وادرك مانفريد توسكانيني ان هيبته ومستقبله ومستقبل اولاده وعائلته اصبح على كف عفريت . وان حياته كلها مهددة بالانتهيار اذا لم يعمل شيئا ما لرفع صوته صائحا ؛ اذا لم تتوقف هذه الموسيقى التي تشبه مواء القطط قورا ، فسوف استدعي الشرطة ..

وتوتر الجو ، وجذبت عيون السكان في تلف وفضول فقد كان واضحا ان لحظة الصدام بين القانون والمتردد عليه اصبحت وشيكة الوقوع .



» نريد ان ننام ، الوقت متأخر . اقبل المذيع ايها الغبي « .. جلست في فراشي ووصل الي سمعي من الركن البعيد من المبنى ، الذي يقع فيه منزلي ، صوت موسيقى خافتة تأكدت بعده بانني لست المقصود بكلمة « غبي » ..

انطلق الصوت الاجش مرة اخرى صارخا ؛ « اقبل المذيع يا حمار .. نريد ان ننام » ..

وبدا سكان المبنى كله في الاستيعاظ واحدا بعد الآخر ، واضيء النور في عدة نوافذ ، وصرخ الجزار الذي يسكن الدور الاول من خلال جريدة كورها على شكل تمع . مطالبيا بزيد من الاحترام لقوانين محاربة الضوضاء ، وصرخ بائع الحدايد (اليهني) ساكن الراداب مرددا اسم بن غوريون ، ثم قمت أنا شخصيا بعد ان اردتيد معطفا فمها فموق بيجامتي ، ونظرت من النافذة ، فقد كانت مشاهدة المنازعات احسدي هواياتي المتعددة ، وصرخت بنبرات هائلة ؛ هدوء .. اين لجنة الاشراف على المنزل ، من هو المسؤول عن ادارة هذا المبنى ؟ ..

وظهر مانفريد توسكانيني الذي لا يمت باي صلة للموسيقى الكبير توسكانيني (مجرد تشابه في الاسماء) في باب مسكنه مخفيا بشيء غير مفهوم ..

استقبل السكان توسكانيني بهتافات وصيحات تداخلت في بعضها ، وحيث انه كان رئيس مجلس ادارة المبنى ، فقد اضطر للصياح قائلا ؛ هدوء .. اذا استمرت هذه الضجة التي نتحدثونها فلن نستطيع معرفة من اين تأتي هذه الموسيقى .. وصمتنا ، واستطاع توسكانيني التأكد من مصدر الموسيقى . كانت تأتي من المسكن الذي يقع على الناصية في السدور الارضي ..

الى الموسيقى الملائكية من الفجأة
التي تحدثها ..

وانسحب توسكانيني الى مسكنه
براس مفكس ، ووقفنا جميعا
خاشعين ننصت للعمل المبالغ
الخالد كاطفال مسحورين ، واحضر
عدد منا كراسى الى « الشرفات »
حيث استلقينا عليها مغمضين
اعيننا في استغراق تام حتى لا نفوتنا
نغمة واحدة ، اما عني انا شخصيا
فكنت احقد في السماء المليئة بالنجوم
الساطعة يتلكني احساس ملائكي
وشغناي تهتمان ..

« بيتهو ... فن » ...
قالت ايتروجا زوجة البيني : من
هذا ؟

— ماذا تصدين ؟
— هذا السيد ، ما اسمه ، بيتهو ؟
— آه لا اعرف ..
— لا بد ان يكون رجلا مهما ،
فلقد انتاب الجميع الخوف —
مجرد سماع اسمه ..
اجاب زوجها : آه لا بد انه يمت
بصلة ما الى بن غوريون ..
— ولماذا صرخت اذن ؟
— لقد كان الجميع يصرخون
— آه ، تتمعل دائما في الصراخ
وانت تعلم ان امورك ليست بالحسنة ،
هل نسيت ما حدث لزملائك الذين
جروا على فتح افواههم اكثر من
اللازم ؟

وارتمش البيني من الخوف
ورفع صوته عاليا : رائع .. هذه
الموسيقى هي اعظم ما في الوجود .
واستيقظ الطفل الصغير ابن الصيدلي
وخرج الى الشرفة صارخا : « بواء
قطط » فصرعه ابوه معلنا ان الطفل
الذي لا يحترم الفن الخالد ، لا يمكن
ان يصبح يوما ما شخصا مفيدا
للمجتمع ، بل انه سوف ينهي الى
السجن او على المشقة .

وفي المسكن المجاور وقف المدرس
الذي لم يتبادل آية كلمة مع زوجته
منذ سوء التفاهم الاخير بينهما ، اي
منذ اربعين عاما محتفنا امراته في
سلام .. آه .. لقد انتصرت
الموسيقى على الخلافات العائلية ..
وتحول السكان والجيران الى
عائلة كبيرة سعيدة وجلسنا جميعا
ننصت وشعور بالحب يملؤنا ..
وهمس الصيدلي الذي كان حريصا
على سمعته قائلا : هذا الروندو ..
عظيم ..

وغهم بائع اللحوم بعدة ملاحظات
بتهم الذين لا يستطيعون التفریق
بين الروندو والشيرتزو بعدم الانتباه
للجنس البشري ..

والقتطت بسرعة « المرشد
الموسيقي » من مكتبتي وبحثت تحت
اسم بيتهوفن عن السيفونية
السابعة ..

(ملحوظة : المرشد الموسيقي هو كتاب
جيبى بكل للشخص الكسلان مونة يمسح
الاشياء ذات الالساء الغريبة عن بعض
الحالات الموسيقية المشهورة في وقت قصير
جدا ..)

وقرات بصوت عال يسمعه
الجميع : « السيفونية السابعة
تعتبر من اهم اعمال بيتهوفن حيث
ان الافتتاحية تستعرض من خلال
تكرار حركات متنوعة متتالية تمكّن
المؤلف من البناء الموسيقي السيفوني
الذي يظهر واضحا في العمل كله ..
الخ .. الخ » .

وتحولت نظرات الاحترام الى
شخصي المتواضع ، واعتبرني الجيران
اكبر خبير موسيقي في الحي كله .
حتى ان ابنة بائع الزهور الذي
يسكن الدور الثالث ارسلت لى
مع اخيها الصغير تسال هل من
الممكن استعارة نظارة الاوبرا الخاصة
بى ؟
وصرخ الصيدلي في محاولة يائسة

لانزعاج الجد مني : من رايسى ان
الافتتاحية تشبه اعمال بارتوك
المتأخرة .

ولكني تداركت الموقف بسرعة
وقلت عدة صفحات من المرشد
الموسيقي ثم صرخت : لا تنسى
ان السيفونية السابعة تتميز
(بالراساس) الذي يظهر واضحا في
(الفينال) خصوصا عندما تقفز
الورتيات للامام .

وركع الجميع عند اقوالي ، كانت
عبقرية بيتهوفن تخطط بثقافتي لشكل
تيارا فكري ينساب بين الجيران .

بلغت الموسيقى ذروتها ، واخذت
آلات النفخ في الزمجرة ، والورتيات
تقفز من هنا وهناك ، ثم جاءت آلات
الايقاع بكل انواعها لتضع حدا لكل
« هذا وصمت كل شيء فجأة ، وارتفع
صوت المذيع معلنا :

« استمعنا سيداتي سادتي الى
مارش على اطلال « نهاريما » من تأليف
يوخاتين ستوكلر لعبته فرقة مطبوعي
الحافىء النحاسية « بتاخ تكفاه »
وفي ختام برامجانا نستمع الى .. » .
وخيم صمت ثقيل على المكان ،

وظهر شبح مانفريد توسكانيني فسي
النافذة كالنقمة الجبار وصرخ بصوت
تلؤه نشوة الانتصار : برن باوم ..
هل تسمعين يا حمار .. اهذا
ما تسميه بيتهوفن يا اكبر الجهلة ؟
وانتفضت زوجة المدرس مبتعدة
عنه وهي تمصص شفتاها ..
وصرخ البيني قائلا : لقد خدعونا
مرة ثانية ..

وعلفت زوجته : اذا حضرت
الشرطة فنحن لا نعرف شيئا ، لم نر
او نسمع اي شيء ، ويعيش بـسن
غوريون ..

وادرك الدكتور بـسن باوم ان
وجوده في المسكن أصبح مستحجلا ،
وبدا بالفعل في البحث عن مسكن
اخر .



وقمنّة مع رجال الفكر



محمود سامي البارودي

<http://Archive.Sakhi.com>

١٨٢٨م - ١٩٠٤م

وهو لا يزال في السابعة من عمره ، ثم التحق بالدرسة الحربية مع أمثاله الجراكسة والأتراك وإبناء الطبقة الحاكمة . وتخرج فيها سنة ١٨٥٤م في عهد عباس الاول ، ولم يجد البارودي وزملاؤه عملا بعد تخرجهم ، ففي عهد عباس (١٨٤٩ - ١٨٥٤) وعهد سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٢) توقفت النهضة لوقوفها ضدها ، وهذا مما ألم البارودي لانه كان يود أن يحقق عن طريق انتمائه الى الجندية آمالا ضخمة تدفعه هذا الالم الذي لم يستعش عن المعارك الحقيقية التي لم يتيسر له خوضها جنديا - بأن يخوض معارك موصوفة في صفحات التاريخ ، فعكف على تراثنا الادبي ، مستجيبا في ذلك للكمة الشعر الكامنة فيه .

هو من اسرة جركسية ذات جاه ونسب قديم ، كان ابيه - حسن حسني البارودي - من امراء المدفعية ، ثم صادر مديرا للبربر ودنقلة ، وكان احد اجداده ملتزما (محصل اموال الحكومة) لايتاي البارود بمحافظة البحيرة ، واليها نسب فسمي « البارودي » ويعود نسب اجداده الى حكام مصر المالك ، وكان البارودي يعرف هذا النسب ويعتز به ، فيقول :

اننا من معشر كرام على الدهر
ر ، افسادوه عزة وصلحا
عمروا الارض مدة ، ثم زالوا
مثلما زالت القرون اجتياحا

وقد ولد البارودي في عام ١٨٢٨ م وذاق مرارة اليتيم

بسم : سلامة قاقيش

والعلاء ، فكف بصره ، وضعف سمعه وتدهورت صحته ،
ونضح شعره بالذباب والامام :

**كيف لا اندب الشيباب وقد اص
بجت كهلا في محنة واغتراب
اخلق الشيب جدتي وكساني
خلة منه رثة الجلباب
لم تدع صولة الحوادث مني
غير اشلاء همة قبي ثياب**

المؤثرات في تكوين شخصيته الادبية

المؤثرات في تكوين شخصية البارودي اهمها :

- ١ - صفاته التي كان اهمها وابرزها « طموحه » ،
ولملم طموحه هو الذي زعده في اللذات المادية الرخيصة ،
وضرعه الى ما يبهر الناس من ارقى الفضائل والقيم .
- ٢ - شجاعته وجراته ، وصراحته في القول ، وتمسكه
بالحق ، وبغضه للظالم .

ومع ذلك لم يكن يخلو من دهاء ، وهذا ما لم يلتفت
اليه كثير ممن كتبوا عنه ، مع انه قد صرح به في شعره ،
اذ قال :

لا ابالي قول داه انا من قوم دهاة

واخباره تثبت ذلك ، فقد استطاع في بعض الفترات
ان يجمع بين ثقة الثورة وثقة الخديوي مما مع اختلافهما ،
الى ان جاءت الفترة الحاسمة حين اصطلح الطرفان
اثر تدخل الانجليز عسكريا ، فايد الثورة بكل قوته
واخلاصه .

٣ - خبرته وتجاربه التي استمدها من احداث عصره .

٤ - الملمة بالتركية والفارسية ، ثم الانجليزية ، الى
جانب ثقافته العربية الواسعة ، واطلاعه وثقافته
شغفه بقراءة الادب والاخبار .

٥ - اشتراكه في الثورة العربية ، واختلاطه بالسيد

شغف بقصائد الحباسة والفخر ، التي تصف
مبايدين القتال ولقاء الإبطال ، وحرص على حفظ كثير
من ذلك وتدوينه ، وتحركت نفسه لنظم الشعر ، ولم يجد
غضاضة - وهو من الطبقة الحاكمة - في ان يقول
الشعر ، اسوة بامراء القيس وابن المعتز ، والشريف
الرضي ، وابي فراس ، وغيرهم من الملوك والامراء
والاشراف ، دون ان يخشى لوما او انتقاما :

**تكلت كالماضين قبلي بما جرت
به عادة الانسان ان يتكلما
فلا يعتمدني بالاساءة غافل
فلا بد لابن الايك ان يقرنما**

ثم ضاقت به مصر وضاق بها ، فرحل الى الاسكندرية ،
مقر الخلافة الاسلامية ، والتحق بوزارة الخارجية ،
وهناك اتقن التركية ، وتعلم الفارسية ودرس آدابها ،
وحفظ كثيرا من اشعارها ، ونظم بها . ثم عاد الى
مصر والتحق بحاشية الخديوي ، وظل يرتقي في مناصب
الجيش ، وتحقق له امله فاشتراك في معارك « كريت »
و « البلقان » وسجل ذلك في شعر قوي نابض بالحياة .

وبعد حرب البلقان عين مديرا للشرطة ، ثم محافظا
للمعاصرة بمصر ، ثم وزيرا للاوقاف ، والحربية ، وكانت
حركة الجيش التي مهدت للثورة العربية قد بدأت ،
ولمح رئيس الوزارة « رياض باشا » ميل البارودي نحو
الشعب ، وعطفه على الثورة ، فاعز للخديوي « توفيق »
فعرله ، وبعد اقالة رياض عاد البارودي الى الوزارة ،
ثم تولى رئاستها ، وحاول ان يوفق بين الجيش والخديوي
فلم يفلح ، وانضم الى الثوار ، واشتعلت الثورة الى
نهايتها ، وتدخل الانجليز ، وهزم عرابي نتيجة الغدر
والخيانة ، ثم حوكم زعماء الثورة ، ونفوا الى « سرنديب »
احدى جزر الهند ، ومن بينهم البارودي ، وهناك مكث
سبعة عشر عاما ، قال فيها اروع قصائده يث فيها
شكواه وحنينه الى وطنه ، ويسف كل ما حوله ، ويرسل
الادباء ، ويرثي من مات من اهله واصدقائه ، وقد تعلم
الانجليزية في مناه وقرأ بها .. واورثه طول النفي السقام

جمال الدين الافغاني رائد الحرية والاصلاح والراي
الحر الجريء في الشرق العربي .

٦ - نفية واغترابه ولوعته بفقد اهله واصدقائه .
٧ - استعداده الفطري للشعر ، وممارسته له حتى
امتلك امره .

٨ - حروبه التي خاضها ، وقد كان ليدان القتال ،
والمناظر الطبيعية ، والناس الذين يخاطبهم ، على
اختلاف لغاتهم والوانهم واجناسهم اثره في شعره .

٩ - حبه لوطنه وقوة الوطنية لديه ، مما جعله يهتف
دائما باسم مصر ، ويحن الى الوطن ، وينشد في ذلك
تصانيد تنبش بالحياة .

ادبه ومذهبه الشعري

تأثر البارودي في شعره بما حفظ ووعى من اشعار
العرب الاقدمين في الفصحى فترسم مذهبهم الشعري ،
وجاء شعره كما وصفه هو نفسه ، « ليس فيه شيء من
تمتعيد الفكرة ، ولا من التضايح المنطقية ، والمسماني
المتوغلة ، في العمق والاراء الفلسفية » . وفي رايه ان
وظيفة الشعر هي : « تهذيب النفوس ، وتدريب الانهام ،
وتثبيته الخواطر الى مكارم الاخلاق » . والشعر عنده
« ومضات تلعب في سما الخيال » وهذه الومضات
الخيالية تألفت في شعره ، كما لاحظت في اثق الهامه ،
دون ان يعمد الى صياغتها محبوكه الاطراف ، او يوغل
بها خلال خيال ممتد طويل في ملحمة من الملاحم ، او
مسرحة من المسرحيات تتابع حوادثها .

وهو يرى ان الشعر الجيد يتميز بوضوح معانيه ،
وحسن تأليف عباراته ، وهذه كلها صفات الشعر
الفناني كما فهمها العرب ، وقد التزم البارودي هذا
المذهب في ديوانه ، ولم يخرج عنه الا نادرا .. وكان
مؤمنا بان الموهبة الشعرية وجدها لا تكفي ، بل يجب
ان تصقل وتهذب بالمرانة والتدريب المتصل .

اغراض شعره

بدأ حياته الشعرية مقلدا لاسلوب القصيدة العربية
يبتدئها كالشعراء الجاهليين ، بالوقوف على الاطلال :

الا حيي من اسماء رسم المنازل
وان هي لم ترجع بينا لسائل

ولكنه عدل عن هذا المذهب في كثير من تصائده ، الا
ان يدعو اليه الموقف الشعري ، كوقوفه على اطلال

عالمه الذي انهار ، وبكائه الديار التي غارتها .. كذلك
قال الشعر في اغراض طرقها القديما ، كالرثاء ، والمدح ،
والفخر ، لكنه فيها جميعا كان يصدر عن معاناة وجدانية
صادقة ، ولم يكن قط لسان حاكم ، او داعية امير ، ولا
اتخذ من شعره بضاعة يبيعهما لذوي الجاه والسلطان
- ككثيره من شعراء عصره - ممن اتخذوا شعرهم
حرمة ومرتقا .

نفى الرثاء لم يرث الا اصدقاء وذوي قرباه ، وهو
في رثائه صادق الحزن ، مستنار الحزن ، يبكي مقتيده
متوجعا شاكيا ، يرثي شمائله وقضائله ، ويعزي فيه
احبابه واهله ، وكثيرا ما يتأسى ببعض الحكم ، دون
ان يلجأ الى اكتناه سر الموت والتفلسف فيه ، وزاد في
عاطفة رثائه وحرارتها ان معظم مرثياته قالها وهو في
منفاه بعيدا عن اهله واخوانه .

ومن أروع مرثياته تلك التي قالها في ابنه « علي » ،
ومنها :

كيف طوتك المنون يا ولدي ؟
وكيف اودعتك النوى بيدي ؟
واكبدي يا علي بمعدك لو
كانت تبسل الغليل « واكبدي »
فقدك سبل العظام مني ، ورد
الصبر عني ، وقست في عضدي

وفي المديح نظم قصائد قليلة في ولاة مصر عن اخلاص ،
ولم ينس في مديحه مصر وموقف الوالي منها ، بل كان
يسدي اليه النصيحة ، ويستطرد الى مدح نظام
الشورى ، وكان مدحه حثا على مكرمة ، او شكرا
على نعمة اسديت له ، لا تملقا او طلبا لمطاء ، يقول
لساميل :

فاسمع مقالة صادق لم ينتسب
لسواك في ادب ولا تهذيب
اوليته خيرا ، فقام لشكره

والشكر للاحسان خير ضرب
ومديحه خال من الغلو والمبالغة ، وان كان اكثر
معانيه في المديح مما ورد في الشعر القديم .

وفي الفخر : وردت له مبالغات مسرفة ، ولكنها مقبولة
من أمثاله ، وقد سبق قوله :

انا من معشر كرام على الدهر
سر ، افادوه عزة وصلاحا

وقد كان غزوه نتيجة عراة نسبه ، وفروسيته ،

كعادة الشعراء الفرسان .

وفي الحكمة : كان يجري على عادة كبار الشعراء في الإبل العربي ، وله فيها أبيات مشهورة يرمع بها قصائده منها :

**ومن تكن العلياء همة نفسه
فكل الذي يلقاه فيها محبب
ومنها :**

**وإذا ساء صنع المرء ساءت حياته
فما لصروف الدهر يوسعها سبأ ؟**

وفي الوصف : كان مفتونا بالطبيعة ، يرى في كل سطر من مسطورها شعرا خالدا ، أو آية من آيات الجلال ، يترنم بها ، ويترجمها للناس ، حتى يشاركوه متعته بها ، وانفعاله بجمالها .. واغرم بالريف المصري اغراما شديدا ، وله فيه قصائد كثيرة منها :

**عم الحيا ، واستنتت الجداول
وغاضت الفدران والمناهل
وازينت بنورها الخمائل
وغشيت في ايكال البلابل
وشمل البقاع خم شابل
فصفحة الأرض ثبات خمائل**

وبرع في وصف الحصان والسيف والمراكب والأشخاص وادوات الحضارة والآثار ، وكان ذا حساسية مرهفة ، حتى ليعمد من أكثر شعراء العربية وصفا . وهو بوصفه للطبيعة لا يشعرنا بأنه يندمج معها ، ويضفي عليها الحياة ، وإنما يقتصر على تصويرها في خطوط سريعة ، ومعان قريبة ، وخيال لا اغراب فيه ولا خشود ، وأهتم بوصف المحسوسات والظواهر المرئية دون أن يوغل في النفاذ الى الاعماق ، ولكننا إذا قمنا لشعره الوصفي بشعر العصر التركي .. وجدناه قد اضاف الى تصوير الظواهر والمحسوسات انفعاله الصادق بها يصف . وقال كذلك في الزهد ومدح الرسول ، والهجاء الشخصي ، وغيرها من الاغراض القديمة .. ولكنه لم يكن صدى للتقدم في كل ما قاله من الشعر بل استروح انفسهم ، حتى استقلت شخصيته عنهم .

وانتصحت هذه الشخصية بمثلة في عصرها وحياسة صاحبها ، فقد عرفنا انه ذاق حلو الزمان ومره ، وصور حياته النفسية في كل أطوارها بصدق واخلاص .

ولنبارودي تجديد شمل عدة نواح :

كان يتخير الالفاظ المناسبة للمعاني ، يفرق ويلطف في مقام الرقة واللفظ ، كان يتفزل ، أو يعتب ، أو يصف منظرا جبيلا ، أو مجلس انس وسمر .. ويجزل شعره ، ويجبل لفظه ، ويشد اسره حين ينشد في الحماسة والفخر ، وحين يصف البحر الهائج والريح الزفوف ، والحرب الخروس :

**إذا اشتد أورى زندة الحرب لفظه
وان رقى أنزرى بالعقود فريده**

ويتضح تجديده في التعبير عن شعوره ومشاهداته ، وله معان جديدة ، وصور لم يسبق اليها ، وقد عني بالوصف غناية مائقة ، واغرد له قصائد بعينها ، والوصف من الاغراض القديمة ، ولكنه كثيرا ما كان يأتي عرضا في ثنايا شعر الاقدمين .

ومن الموضوعات التي جدد فيها الشعر السياسي ، فظهر فيه ذا نفس ابية متبردة على الظلم والطغيان ، محبة للعدالة والمساواة بين الناس ، وبه ارتفع الى مركز الصدارة في تومه زعيما وقائدا وشاعرا وجدانيا ، وقد خاض الثورة بشعره كما خاضها بسيفه .

صور سوء حال الشعب ، وانكر فساد الاوضاع ، وحضي على الثورة حينا ، ونصح النوار احيانا ، ووصف تخاذلهم ، وحرضهم على الثبات ، فلما لحقت الهزيمة بالثورة خيأته وغدرا ، وسبق الى منفاه ، ظل هناك يلتفت الى بلخر بكل وجدانه ، ويمعج لثنيه وتثريده ، وهو لم يتقرب انما او جزيرة ، وانما جاهد لخدمة وطنه وامته :

**ومن عجائب ما لاقيت من زميني
انني منيت بخطب امره عجب
لم اقترب زلة تقضي علي بما
اصبحت فيه ، فماذا الويل والحرب ؟
فهل نقاسي عن ديني وعن وطني
ذنوب ادان به ظلما واقترب ؟**

وصهرته المحنة ، فجاء شعره في الحنين الى الوطن مشرا حافلا بالشوق والشجن :

**فيا مصر مد الله ظلك ، وارثوي
تراك بسلسال من النيل دافق
فانت حسي قومي ، ومشعب اسرتي
وملعب اقرباسي ، ومجرى سوابقي
وصور مفاسد عصره ، واسراف اسماويل ، وارهاته**

الى الطبع والنشر . كما ترك مختارات من الشعر في
اربعة اجزاء كبيرة ، اختارها من عيون الشعراء
لثلاثين شاعرا من اكابر الشعراء ، وقد تناولها ايضا
بشرح لغوي يسير .

البارودي بين القديم والجديد

يعد البارودي باحث نهضة الشعر في العصر الحديث،
لانه بث فيه الروح بعد ان خففتها عصور الانحطاط ورد
اليه ما ابلت القرون من حيويته ، واعاده الى عزه القديم،
ووصله بعد الفحول الكبار من الشعراء المباسيين
بفصاحة عبارته ومثانة قوافيه .

جدد في كثير من اغراض شعره على غير مثال ،
واستحدث نماذج لن اتى بعده من الشعراء في ابواب:
الوصف ، والشعر السياسي ، والهجاء الاجتماعي
والرثاء والمدح .

كان يقول الشعر عن معاناة عاطفية صادقة : ويؤمن
بان الشاعر في امته يحيل امانة القيادة الوجدانية فيها ،
معيذا عن هيوها ، ومستشرفا الى بعيد الغايات
الصالحة لها . . ويدين له شعرنا الحديث بانه هو الذي
عبر به عن مهاوي الظلمة والانحطاط التي تردى فيها
قبله ، وارتفع به عن التكسب والابتذال ، ووسع من
افقه خارجا به عن نطاق الذاتية الفردية الى الذاتية
الاجتماعية .

ولقد كان في عصره مجددا حتى في محركاته لفحول
الشعراء القدامى ، ومعارضته لهم ، سار على نهجهم
في الصياغة والبيان ولكنه ظل متصلا بعالمه النفسي ،
متنفصا بتجربته ومعاناته ، يحتفظا بطابع امالته ،
وكان اثره واضحا فيمن اتى بعده من الشعراء العرب،
فانجسوا الى السير على نهجه ، بعد ان عبد لهم الطريق،
وهيا لهم السبيل .

والبارودي صاحب مدرسة تميزت بما يلي :

رصانة التعبير ، احكام الصياغة ، فصاحة الالفاظ ،
وضوح المعاني والمصور ، المحافظة على النسق التقليدي
للقصيدة العربية : من وحدة الوزن والقافية وترصيع
الابيات بالحكم ، الاتصال باحداث العصر ، والاستجابة
لمطالب البيئة ، والاشتراك في قضايا الامة والمجتمع .

سلامة قافيش
الكويت



الناس بالضرائب حتى تركوا مزارعهم وتجارتهم ،
واصبوا في قلق واضطراب :

تسكرت مصر بعد العز واضطربت
قواعد الملك ، حتى ربح طائره
واهمل الارض جرا الظلم حارثها
واسترجع المال خوف المدم تاجرته
كنا نود انقلابا تسترجع به
حتى اذا تم سافتنا مصايرته

ووجد كذلك في غزله ، فلم تعد المرأة لديه دمية
يلو بها ، ويتقنن في وصف جمالها الحسي ، كما لم يعد
الحب عنده متمتع جسدية يصورها في عري وابتذال ، بل
سبت نظرتهم اليه والتمس فيهم متعة الروح ونعيم القلب،
ووضع اثره في تهذيب النفس :

والعشق مكرمة اذا علف الفتى
عما يهيم به الفئوي الاصور
يقوى به قلب الجبان ، ويرعوي
طمع الحريص ، ويخضع المتكبر

وبرع كذلك في الهجاء الاجتماعي ، يجسم به عيبا
من عيوب المجتمع ، ويصوره في اشبع صورة ،
رغبة في الإصلاح ، فيمنى على قومه التفاهة وشيوع
الظلم ، والفقر ، والجوع ، والحرص على الحياة ،
فكان بذلك طليعة تطور ، نقل الهجاء من السباب المفضح
الذي يتناول الشؤون الفردية الخاصة الى نقد اجتماعي
عام .

خلف لنا البارودي ديوانا ضخما من الشعر ، عكف
على تنسيقه وترتيبه ومراجعتهم وشرح غريبه والمتعلق
عليه قبل وفاته ، وقامت زوجته بالانفاق على طبعه ،
ولكن لم يطبع منه اول الامر الا جزءان ، ثم طبعت وزارة
التربية جزئين آخرين ، ولا تزال بقية شعره في حاجة